قراءة في ملحمة جلجامش

تروي سائر الأساطير ابتداء من السومرية مروراً بالمصرية القديمة وصولاً إلى الكوسموغونيا اليونانية أنه لم يكن في البدء سوى عماء وماء[لخ]. من هنا يمكننا

---

(1) تروي الأساطير السومرية أن الإله (نامو) كان الماء الأولى.ثم انجب ولدين (أن) و(كي) ولد من اتحادهما (إنليل ـ إله الهواء) الذي ضاق ذرعاً بالتحامه بأبويه ففصل بينهما وجعل (آن. سماء) (وأمه. كي. أرضاً). ولقد كان يلف (إنليل) ظلام دامس فأنجب (نانا= سين = القمر) ليبدد الظلام من حوله كون الظلام أسبق في الوجود من النور ثم أنجب (نانا) (ابنا اسمه شمش = الشمس) الذي فاق أباه وخلفه على عرش الماء.

وتروي الأساطير المصرية أيضا أن العماء البدئي كان (نون ـ نو) وهو الأقيانوس الذي كان قبل السماء والأرض ثم تشكلت كل الأشياء في داخلها فصار اسمها (أتوم ـ البدء أو الإكتمال) تشكلت في داخلها تحت اسم (أتوم ـ رع) أنجبت الهواء (شو) وتوأمه (تفنوت) أنجبا بدورهما (الأرض ـ جيت) و(السماء ـ نوت). وفي كتاب (تاو ـ تي ـ كنغ) يقول (لاوتسه): (شي ما. لا شكل له. موجود قبل السماوات والأرض. صامت وخاو. قائم وحده. لا ينتابه تغير. يدور على نفسه ولا يبلى إنه بحق أم هذا الكون. لا أعرف اسمه أدعوه (تاو) لا أستطيع وصفه فأقول العظيم. عظمته

obeikandl.com

القول: (**إن واجب الوجود قبل خلقه العالم أو قبل أن يفيض العالم عنه كان يلف الكون سديم هيولاني من عماء وماء**). وأن الميلاد كان ميلاداً مائياً (**وجعلنا من الماء كل شيء حي**) ولما فسر (فرويد) الأساطير تفسيراً (سيكولوجياً) رأى أن ولادة الكون من عماء مائي هي صورة لحالة الإنسان في الرحم قبل الولادة. وما بروز العالم والحياة إلى المحيط الأول إلا استعادة للحالة الأسطورية الكامنة في نفس صانع الأسطورة عند الخروج من رحم الأم ولما لدراسة الأساطير من بالغ الأهمية فلقد ركز (يونغ) تلميذ (فرويد) على دارستها دراسة فلسفية كونها نظاماً فكرياً استوعب قلق الإنسان الوجودي وتوقه الأبدي لكشف الغوامض فاستنتج من دراستها مناهج شتى. ومن يتناول (ملحمة جلجامش) بالدراسة لا بد من أن تتحرك فيه مكامن ابداعه فيستخلص منها صوراً وأفكاراً تضاف إلى جهود الأخرين ممن سبقوه حين دراستهم لها.

امتداد في المكان، والامتداد في المكان يعنى امتدادا بلا نهاية والامتداد بلا نهاية يعني العودة إلى نقطة البدء).

الكوسموغونيا اليونانية تقول: (الكاووس ـ الخواء القديم الشكل)

(جيا ـ الأرض حيث كانت غير مستقرة خرجت من الكاووس)

(ايروس ـ القوة الكونية التي فيها تلتقي الأشياء وتتوالد وتندمج)

ونقرأ في الحديث الشريف أيضاً أنه لما سئل محمد (ص) عن الله قبل خلقه العالم أجاب: (كان في عماء ما فوقه هواء... ولا تحته هواء... ثم خلق عرشه على الماء) **ونقرأ في حديث قدسي:** (كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق) وتقول التوراة: (**في البدء خلق الله السماوات والأرض وكانت خربة خالية وعلى وجه القمر ظلمة وروح الله يرف على وجه الماء**).

وتقول التوراة أيضاً: (كانت الأرض خربة خالية. فقال الله. ليكن نور فكان نور).

والآية الكريمة تقول: (هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) **هود /6/**

ملحمة جلجامش(1)

السومرية المكتوبة بالأكادية البابلية، كما أكدت البحوث الأركيولوجية من أقدم الأعمال الإنسانية المحضة أن لم نقل أقدمها على الإطلاق وأكمل تحفه أدبية حيث أكدت هذه الأسطورة طابعها التجميعي لسائر شعوب المنطقة . ترجمت ـ لعظمها وسمو مراميها ـ إلى سائر اللغات الحية قديماً وحديثاً. كم أوغل في مجاهيلها المؤرخون والبحاثون، وغاص في أعماقها المتخصصون والمهتمون وتغنى بها ولها الموسيقيون والمطربون، وحلق في مجاهيلها الفنانون التشكيليون وهام في شكلها وفحواها الشعراء والمسرحيون، كل تناولها من زاوية حسب هواه محاولاً عصرنتها وذلك بجدل تولفية تحمل إسقاطاً يمس واقعاً معيشاً كونها (حمالة أوجه) إن صح التعبير. منهم من سماها (هو الذي رأى كل شيء) نسبة إلى مطلعها حيث كانت تسمي القصائد بأسماء المطالع(2) ومنهم من أطلق عليها (أوديسة العراق القديم). أما الأحلام المكتظة فيها فهي بمثابة رسائل تنبيهية كونها شاشات رادارية تُنْبِئ /جلجامش/ و/ أنكيدو/ بخبيء المجهول وتستشرف لهما مكنون الآتي حتى يغدو الغيب عياناً مرئياً لهما وكأنها في ملحمة تختص بتفسير الأحلام. ولما للذكرى من فائدة قصوى فسأورد فحوى الملحمة بعد غربلتها واختزالها اختزالاً مكثفاً مدروساً مزيلاً عنها الكثير من التكرار الممل مسقطاً منها الشوائب التي إن حذفت سمت بالنص مبنى من غير أن تؤثر في سياقه معنى، مركزاً على الجوانب المفصلية

---

(1) لا يعرف معنى اسمه فمنهم من يقول: الجلال أو العزة لجلجامش. والملحمة قصيدة مكونة من /12/ألف بيت من الشعر في اثني عشر لوحاً واللوح الثاني عشر مضافاً إليها لأنه من غير سياقها. دونت الملحمة في القرن /2/ ق.م وفيها قطع تعود إلى /4/ ألاف. ق. م ومنها ما هو أقدم من ذلك ويعود فضل اكتشافها، لم يصل سوى نصفها بحالة جيدة، إلى (أوستين هنري ليرد) و(هرمزسام) و(جورج سميث) /1839 - 1853/. هذا وقد وجد السومريون في /5/ ألاف ق. م والبابليون في /3/ ألاف ق. م والأشوريون في الألف الأول ق. م وحضارة البابلين والأشورين مستمدة من حضارة السومريين وهذا يذكرنا بفضل اليونان على الرومان. وتعود الملحمة إلى القرن الألف الثاني ق. م.

(2) كذلك سميت ملحمة الخلق (اينوما إيليش) بـ (عندما كان في الأعالي) نسبة إلى مطلعها.

التي لا يمكن إغفالها لأنها المتن واللحمة والسَّدَى، آملاً بهذا الاختزال المركز أن أبلغ عتبة الكفاية.

ملخص الملحمة: جلجامش بطل ميثولوجي ثلثاه إله وثله بشر... أحسن الله العظيم خلقه حباه بالحسن (شمس ـ إله الشمس) وخصه بالبطولة (أددـ إله الرعد والأمطار) أعلى أسوار (أوروك[لخ] ـ الوركاء حالياً).

بنى معبد (إينانا = عشتار). ظالم لا يترك ابناً لأمه ولا عذراء لحبيبها. شكى الجميع ظلمه إلى الآلهة فاستدعى (آنو ـ إله السماء كبيرهم) الذي بعد أن سمع مقالهم استدعى بدوره (أرورو ـ إحدى الإلهات الخالقة وخالقة جلجامش) وأمرها أن تخلق غريماً له يضارعه قوة وبأساً ليحل الأمن والرخاء في أرجاء (أوروك)...أخذت (أورورو) قبضة من **الطين** وخلقت منها (أنكيدو) الجبار من نسل (ننورتا ـ إله الحرب). كبر (أنكيدو) وصار **يأكل العشب** مع الظباء. رآه الصياد مراراً على مورد الماء فانتابه الهلع. هرع الصياد إلى أبيه وقص عليه ما رأى فطلب منه أبوه أن **يخبر** جلجامش بذلك ليعطيه بَغِياً تروضه ففعل.

أرسل جلجامش مع الصياد بغياً لتكشف (لأنكيدو) عن صدرها ومفاتن جسدها وتعلمه فن وظائف المرأة، رأى (أنكيدو) مفاتن البغي فانجذب إليها مسحوراً **وعاشرها ستة أيام وسبع ليال** وبعد أن ارتوى وقضى وطره منها رأته الحيوانات فولت هاربة منه ولما هم باللحاق بها خانته قواه إلا أنه أصبح واسع الفهم لامتلاكه عظمة المعرفة.سارعت به البغي إلى جلجامش و(أنكيدو) يتهدد ويتوعد ويتحدى معلناً أنه الأقوى. وقتها رأى جلجامش **حلمين** رأى **في الأول** كواكب السماء حيث سقط عليه منها شهاب لم يستطع رفعه عنه إلا بمساعدة أهل (أوروك)، ورأى **في الثاني** (فأساً) انحنى عليها كما ينحني على امرأة. فسرت له أمه (الإلهه البقرة الوحشية نينسون) مغزى الحلمين وأن الشهاب والفأس ما هما إلا رجل سيحنو عليه

---

(1) أوروك. من أهم المدن السومرية محاطة بسور عظيم /9/ ق. م وهو اول سور مدينة في التاريخ. وهو من أعمال جلجامش. فيها اخترعت الكتابة التصويرية ثم المسمارية. تضم معبد (إنانا = الزهرة) إلهه الأمومة الكبرى وكانت وثيقة الصلة بـ (دموزي = تموز).

ويتخذه صديقاً وقت الضيق. وصلت البغي (بأنكيدو) إلى مائدة الرعاة. ووضعوا أمامه خبزاً وشراباً فلم يعرف كيف يأكل، قالت البغي: (**كل الخبز يا أنكيدو فإنه مادة الحياة واشرب من هذا الشراب فإنه عادة أهل هذه البلاد**) فأكل وشرب سبعة أقداح ثم **مسح جسده بالزيت فصار إنساناً**. دخل عليهم رجل يشكو اقتحام جلجامش ـ على قرع الطبل ـ البيت المخصص للعرائس ليختار الرجل العروس التي يشتهيها قبل أن تكون لعريسها فامتقع وجه(أنكيدو) وسار خلف البغي إلى (أوروك) لملاقاة (جلجامش). رآه أهل (أوروك) فوجدوا فيه شبهاً لجلجامش إلا أنه أقصر قامة وأقوى عظماً وفرحوا بمقدمه فرحاً عظيماً كونه قوة تحد من جبروت وظلم (جلجامش). كان (جلجامش) آنئذ متوجهاً إلى مخدع (إشخارا ـ إلهة من آلهات الحب وشكل من أشكال عشتار) (تقوم بدور الاتصال الجنسي) ليضاجعها فاعترض سبيله (أنكيدو) وتقاتلا كثورين هائجين طويلاً وعندما حاول جلجامش رفع (أنكيدو) هدأ غضبه فاستدار يروم الذهاب، ناداه (أنكيدو) قائلاً: لقد رفع (أنليل) رأسك عالياً إلى السماء وقدر عليك الملكية على البشر ثم صارا صديقين حميمين. طلب /جلجامش/ من /أنكيدو/ أن يسافر معه إلى غابة الأرز حيث يسكن وحش الغابة /خمبابا/ لقتله **وإزالة الشر من الأرض**، حاول /أنكيدو/ أن يثني عزمه عن هذه الرحلة الخطرة لأنه يعرف مخاطر هذه الغابة يوم كان حيواناً، ويعرف (خمبابا) الذي لا يصد له هجوم حيث ينفث النار من فمه ولقاؤه يعني لقاء الموت بعينه.

أجاب (جلجامش) (أنكيدو) قائلاً: يا صديقي... **من الذي يستطيع أن يرمي أسباب السماء؟ الآلهة وحدهم هم الذين يعيشون إلى الأبد مع (شمس) أما أبناء البشر فأيامهم معدودات وكل ما عملوا لهو ولعب. وإذا هلكت فسيخلد اسمي...** ثم صمما على القيام بهذه الرحلة معاً. سار جلجامش في شوارع (أوروك) معلناً عن بدء الرحلة.

أمر صانعي السلاح أن يصنعوا له أسلحة قوية تتناسب وحجم هذه الرحلة الخطرة. حذره من هذه الرحلة أيضاً شيوخ (أوروك) كما حذره (أنكيدو) من قبل إلا أن ذلك لم يثن من عزمه. دخل وصلى للإله (شمش) طالباً منه المساعدة والنصر. ثم نصحه شيوخ (أوروك) أن لا يعتمد على قوته المفرطة فقط وأن على (أنكيدو) أن يسير أمامه

لمعرفته بمجاهيل الغابة ناهيك عن أن **من يمشي في المقدمة يحمي صاحبه** راجين له النصر طالبين أن يذكر دائماً (لو كال بندا) ليقف بجانبه. طلب (جلجامش) من (أنكيدو) أن يدخل معه إلى معبد (إي كال ماخ) للمثول أمام أمه (البقرة الإله نينسون) لتسدي له النصح، سجد أمامها وشرح لها مبتغاه وطلب منها أن تشفع له عند (شمش) ففعلت وصلت من أجله وطلبت من (آي = آية) آلهة الصباح زوجة (شمش) أن تذكره بحماية ابنها آملة من (سين = إله القمر) أن يحرسه . وبعد مسير طويل وصل الاثنان إلى باب الغابة فقتلا عفريتاً عيَّنه (خمبابا) لحراسته. تخطى (أنكيدو) عتبة باب الغابة فشُلَّت قواه بتأثير سحر الباب وحذر (جلجامش) من الدخول لكن (جلجامش) لم يأبه لتحذيره فدخل ليتابعا السير معاً وليحمي كل منهما الآخر قائلاً: (**إذا سقطنا يا صديقي في المعارك فسيكتب لاسمينا الخلود الأزلي**).(لخ)

أوغلا في الغابة مُتَقَفِّين خطوات (خمبابا) حتى وصلا إلى عرش الإلهة (إيريني = عشتار) وعند مغيب الشمس حفرا بئراً قرباناً لـ (شمش) كما أوصاه شيوخ (أوروك) وسكب الماء المقدس وقرب الطعام ودعى الجبل أن يريه **حلماً** يبشره بالفرح فرأى بدل الحلم حلمين ولما استيقظ قص حلميه على صديقه (أنكيدو) حيث رأى أنهما يقفان على جبل يتصدع ثم تداعى ذلك الجبل . وفي **المنام الثاني** أنهار ذلك الجبل. فسر له (أنكيدو) الحلمين بأن الجبل الذي تصدع ثم انهار هو (خمبابا) وأنهما سينتصران عليه. بدأ (جلجامش) بقطع **أشجار الأرز في الغابة**. سمع (خمبابا) الضجيج. فهاج وماج وزمجر فدب الرعب في قلب البطلين وتضرعا إلى (شمش) طالبَيْن عونه فاستجاب لهما وأرسل على (خمبابا) ريحا صرصراً عاتية شلت **حركته فتوسل (خمبابا) اليهما طالباً** منهما أن يبقياه حياً ويكون خادماً لهما. رق قلب (جلجامش) وكاد أن يبقي عليه لولا أن حرضه (أنكيدو) على الخلاص منه فقتلاه وعادا منتصرين إلى (أوروك). غسل (جلجامش) شعره المنساب على كتفيه وارتدى الحلة المزركشة البهيجة وتاج الملك وغدا في غاية الجمال والجلال رأته (عشتار)

---

(1) **ويذكرنا ذلك بالآية الكريمة** (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا.. بل أحياء عند ربهم يرزقون).

فراق لها منظره البهي فتاقت لعناقه ووصاله ونادته: ((تعال إلي يا (جلجامش) وكن حبيبي أقدم لك مركبة من اللازورد والذهب)). لكن (جلجامش) لم يأبه لشبقها لأنه يعرفها أنها دائمة البحث عن العمل الجنسي فقبحها وذكرها بسيئات أعمالها وكيف أنها لم تخلص ولم تبق على أحد من عشاقها حيث أساءت إليهم جميعاً بعد أن قضت وطرها منهم. استشاطت (عشتار) غضباً من رد (جلجامش) وصعدت إلى أبيها (آنو) وأمها (آنتم) وطلبت من أبيها أن يخلق لها ثوراً سماوياً مجنحا يهلك (جلجامش) وهدَّدَتْ أباها بأنه إذا لم يستجب لطلبها فستحطم باب العالم السفلي وستجعل الموتى يقومون ليأكلوا الأحياء. أجابها (آنو) قائلا: لو لبيت طلبك لحلت سبع سنين عجاف. ثم سألها: (هل جمعت غلة تكفي الناس والماشية هذه المدة؟) قالت: (نعم).. فأنزل (آنو) الثور السماوي المجنح وبأول زمجرة له قضى على مئة ثم مئتين ثم ثلاثمئة. إلا أن (جلجامش) بمساعدة (أنكيدو) استطاع قتل الثور السماوي واقتلاع عينيه وتقديمهما قرباناً للإله (شمش). فما كان من (عشتار) إلا أن علت أسوار (أوروك) لتقذف اللعنات على من دنسها وأهانها وقتل ثور السماء. فقطع (أنكيدو) فخذ الثور وقذفه في وجه (عشتار) وقال مهدداً: (**لو قبضت عليك لجعلت مصيرك كمصير هذا الثور**). ثم غسل كل منهما يديه في نهر الفرات وسارا إلى(أوروك). تجمهر الناس ليروا البطلين الجبارين، فأقام (جلجامش) حفلاً مهيباً في قصره ثم استراح الاثنان وناما. رأى (أنكيدو) حلماً فحواه أن الآلهة العظام (آنو = إنليل = شمش السماوي) قد اجتمعوا يتشاورون بشأن من قتل (خمبابا) و(الثور السماوي). قال: (آنو): (**يجب أن يموت "جلجامش"**)، قال (إنليل): (**يجب أن يموت "أنكيدو"**) وقال (شمش): (**أنكيدو بريء**) أجابه (إنليل) حانقاً: **لأنك يا شمس تنزل كل صباح على الأرض فقد صرت تدافع عن البشر وكأنك واحد منهم**. أصيب (أنكيدو) بالحمى وأحس بالوهن يدب في أوصاله بكى وبدأ يلعن الصياد الذي قاده إلى البغي ويلعن البغي التي زينت له المجيء إلى (أوروك) ليتمتع بالحياة المدنية. ثم رأى حلماً آخر فقصه على (جلجامش) حيث ظهر له مخلوق مخيف كطير الصاعقة (زو) عرّاهُ من ثيابه وأمسكه بمخالبه وأخذ بخناقه حتى أخمد أنفاسه وأخذه إلى مسكن (أركلا: من أسماء آلهة العالم السفلي) إلى الدار التي لا يرجع منها من دخلها. حيث

الموتى هناك مكسوون بالريش. التراب طعامهم والطين قوتهم. هناك تحكم (أريشكيجال) ملكة العالم السفلي وليس هناك سوى العظام نواب (إنليل) يقدمون اللحم والشواء. وعندما بلغ المرض (بأنكيدو) مبلغاً عظيماً قال (لجلجامش) متثاقلاً: **(لقد حلت علي اللعنة لأني سأموت في فراشي ميتة الرجل الذليل ولم أمت ميتة رجل سقط في ساح الوغى لأن من يسقط في ساح الوغى مبارك)** وبعد أن صمت (أنكيدو) صمتة لم يعد بعدها قادراً على إتقان لغة الأحياء، صاح (جلجامش) سأنوح عليك نواح الثكالى ويبكيك ماء الفرات يا من كنت ساعدي وسندي. أي سِنَةٍ من النوم غلبتك وتمكنت منك؟ وبعد بكاء (تراجيدي) استعرض من خلاله أهم مآثر (أنكيدو) في حياته أمر الصناع أن يقيموا له تمثالاً يخلد ذكراه. ثم خلع (جلجامش) ثيابه المزركشة ولبس جلد الأسود، وهام على وجهه في البراري هارباً من شبح الموت متسائلاً: ترى!! هل سيكون مصيري كمصير (أنكيدو)؟ فيمم وجهه ـ وحيداً هذه المرة ـ شطر (أوتونابشتيم). تملكه الرعب في الطريق من الأسود. ذلك الذي لم يكن يخاف حتى من (خمبابا) هزه الموت فصلى لـ (سين) ليحفظه ويحميه ثم استلقى ونام. رأى في المنام السباع وقد اجتمعت حوله فانقض عليها كالسهم. وبعد أن استيقظ.. سار طويلاً حتى بلغ جبل (ماشو). حيث هناك (البشر العقارب) تحرس الشمس في طلوعها ومغيبها. خاف منهم (جلجامش) فسأله أحدهم عن سبب مجيئه أجابه (جلجامش) إنه يقصد (أوتونابشتيم) ليسأله عن لغز الحياة والموت. فتح البشر العقارب له الباب ودخل فسار في ظلام دامس طويلاً طويلاً حتى آنس بعد لأي ضوء الشمس فرأى أشجاراً قطوفها دانية وثمارها أحجار كريمة، رأته (سيدوري) حارسة الحانة الإلهية فأوصدت في وجهه الباب ولما عرفها بنفسه سألته عن سبب حزنه فأخبرها بقصة (أنكيدو) وكيف أن الدود قد وقع على وجهه وأنه يريد الحياة. أجابته(سيدوري): الحياة الأبدية التي تبغي لن تجدها لأن الموت مقدر على البشر وهو ضريبة الولادة وأن الآلهة وحدها قد استأثرت بالحياة الأبدية طالبة منه أن يملأ كرشه ويأكل حتى يشبع ويلهو ويقضي حياته القصيرة في الملذات وإشباع الرغبات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. لكن (جلجامش) سأل حارسة الحانة عن الطريق الموصلة إلى (أوتونابشتيم) فشرحت له صعوبة ما يطمح إليه حيث عليه أن يقطع بحراً لم

يقطعه أحد قبله. ثم ما عساه يفعل عندما يبلغ مياه الموت التي عليه أن يمر بها قبل وصوله إلى (أوتونابشتيم). ثم دلته على (أورشنابي) ملاح (أوتونابشتيم) الذي بإمكانه ـ وحده فقط ـ أن يوصله إلى ما يبغي. فإذا وجده فليتابع الرحلة معه وإن لم يجده فالأولى له أن يعود. تابع سيره حسب إرشادات (سيدوري) فرأى (أورشنابي) ودار بينهما الحوار الذي دار مع (سيدوري) ثم استقلا سفينة وقصدا (أوتونابشتيم) رأى (أوتونابشتيم) السفينة فسأل (جلجامش) عن سر امتقاع وجهه فأعاد عليه الإجابة التي أجاب بها (سيدوري) و(الملاح أورشنابي) وأن السبب هو موت (أنكيدو) وأنه لا يريد لنفسه مصيراً كمصير صديقه أجابه (أوتونابشتيم) الدهر لا يرحم.. والموت قدر محتم.. ولا يميز بين العبد والسيد إن جاء أجلهما وأن الآلهة لم تكشف سر الموت العصي على أحد.

تفرس (جلجامش) في وجه (أوتونابشتيم) فرأى فيه شبيهاً له في الهيئة فقام يسأله: ماسر خلودك وأنت مثلي ؟.

ساعتها كشف (أوتونابشتيم) لـ (جلجامش) سر لغز خلوده وأنه حدث مستثنى ولا تنطبق عليه قاعدة الموت التي تطال البشر. قال (أوتونابشتيم): (**عندما قررت الآلهة دمار العالم وعلى رأسهم (إنليل) لمحق الفاسدين على الأرض أزمعت طوفانا وكان معهم (أيا)**) فنقل كلام الآلهة تلميحاً إليه عن طريق مناداته كوخ القصب حين خاطبه: (اسمع يا كوخ القصب وافهم يا حائط "والكلام هنا موجه لأوتونابشتيم" اصنع الفلك بأعيننا وإحمل عليه من كل زوجين إثنين من بذرة كل شيء حي واحمل أهلك أيضاً). فانصاع (أوتونابشتيم) إلى الأمر.

ولما حانت ساعة الطوفان ركب السفينة ومن معه فأمطرت السماء وتفجرت عيون الأرض واستمرت الزوابع والأمطار ستة أيام وسبع ليال حتى غطى عباب الطوفان الأرض وفي اليوم السابع هدأت الرياح فأقلعت السماء وغاضت الأرض واستقر الفلك على جبل(نصير). أرسل (أوتونابشتيم) (حمامة) فعادت لعدم وجود مكان تحط به ثم أرسل (سنونو) وعاد أيضاً ثم أرسل (غراباً) ولم يعد فعرف أن الطوفان قد انتهى. فأطلق من كان على السفينة في الاتجاهات الأربعة وبذلك كتب

لـه (أي لأوتونابشـتيم) الخلـود وصـار مثـل الآلهـة ثـم خاطـب (أوتونابشـتيم) قـائلاً: (لجلجامش): أما أنت. فمن يجمع الآلهة من أجلك؟ وطلب من(جلجامش) أن لا ينام ليقنعه بأنه بشر وأن النوم والموت مقدران عليه فوافق (جلجامش) وما هي إلا لحظة حتى أخذته سِنَةٌ من الوسن. ولما أيقظه (أوتونابشتيم) قال له (جلجامش) مستاء والنوم ما زال بعينيه: لم تمسسني سنة النوم حتى أيقظتني لم فعلت ذلك؟ فطلب منه (أوتونابشتيم) أن يعد الأرغفة التي صنعتها زوجه حيث كانت تصنع رغيفاً في كل ليلة ينام بها وإذْ بها (ستة أرغفة) والسابع مازال ساخنا. عنَّفَ (أوتونابشتيم) ملاّحه (أورشنابي) لأنه جاء بـ (جلجامش) إليه وأمره بأن يذهب به ليغسل أدرانه ثم يعود به من حيث أتى. ولما ركب السفينة أخذت (أوتونابشتيم) الشفقة فعرض عليه حلاً وسطاً. حيث توجد في قاع البحر (نبتة غريبة) هي سر من أسرار الآلهة لا تعطى الخلود لكنها تجدد الشباب وتطيل العمر. ربط (جلجامش) في قدميه حجراً ثقيلاً وغاص في الأعماق واقتلع النبتة الشوكية وصعد بها إلى الشاطىء ثم أبحر مع (أورشنابي) قاصداً (أوروك) فرحاً بما أنجز. كان اليوم حاراً جداً فنزل واستحم ببركة ماء شمت الحية رائحة النبتة فاختطفتها. وبينما هي عائدة نزعت عنها جلدها واستعادت شبابها. لحظتها لف اليأس والقنوط (جلجامش) وانهد صرح طموحه وتساءل مستسلماً حزيناً وهو عائد إلى (أوروك):

لمن شقيت؟ لمن تعذبت وتعبت؟ لمن نزفت دم قلبي ولم أجد لنفسي مغنماً ما؟!! ترى!! أكل ما جنيت.. كان من أجل حية التراب؟..

نهاية تلخيص الملحمة

وهكذا كانت دورة حياة (جلجامش).. كانت عوداً على بدء.. حيث خلق من التراب وسيرد إلى التراب.. وطعامه الطين والتراب.. وحتى يوم كان في عز جبروته وعلى الرغم من أن ثلثيه إله.. لم يكن سوى ملك بشري آدمي لصيق بالتراب..

تلخيص لوح 12

لوح 12 فيه وصف لشجرة (الحلبو) على ضفاف الفرات التي اقتلعتها الرياح فرأتها (إنانا) وأخذتها إلى البستان المقدس في (أوروك) وغرستها واعتنت بها لتصنع من

خشبها سريراً وكرسياً لها. نمت الشجرة فأقامت في أسفلها حية وفي وسطها العفريت (ليلا) وفي أعلاها الطائر (زو) فتألمت لذلك (إنانا). سمع (جلجامش) بذلك فهب إلى الشجرة وقتل (الحية) ولما شاهد الطائر (زو) ما حدث فر بفراخه هرباً وتبعته (ليلا)، قطع (جلجامش) الشجرة وقدمها إلى (إنانا) لتحقيق رغبتها فصنعت له مكافأة آلتين موسيقيتين (بكو) (من أسفل الشجرة) و(مكو) (من أعلى الشجرة).

و عندما كان (جلجامش) يقوم بطقوس سحرية لإعادة (أنكيدو) إلى الأرض سقطت الآلتان إلى العالم السفلي فحزن عليهما (جلجامش) فتراءى له (أنكيدو) يعده بأنه سيحضرهما إليه فطلب (جلجامش) من (إنليل) أن يخرج (أنكيدو) من العالم السفلي فلم يستجب له. ذهب إلى (سين) أيضاً فلم يستجب لطلبه ثم ذهب إلى (إيا) فخاطب (إيا) البطل(نرجال) بفتح الهوة التي تلاصق العالم السفلي ففتحها وخرجت روح (أنكيدو) فسأله: (جلجامش) عن العالم السفلي فيصف (أنكيدو) له ذلك العالم بأنه صورة قاتمة في عالم الأموات ثم صرخ (ياويلتاه) ورمى نفسه التراب.[1] (لخ)

توصيف لبعض عناصر الملحمة: قبل أن أدخل فلك التوصيف. وأقدم ومضات إشارية لبعض عناصر الملحمة أذكر بمسألة هامة هي أنه لا يمكن أن ندخل الأسطورة في دائرة (الإيتولوجيا ـ علم تعليل الأسباب) ونخضعها للمعايير المنطقية والنقد المنهجي الموضوعي كونها قوة حطمت أطر الزمان والمكان كالحلم تماماً فهي مرتع خصب للمشاعر الإنسانية اللاإرادية وتعبير عن لا وعي الإنسان، وتراكمات كمية موغلة في القدم ممتدة نحو الحاضر ما أمكنها الامتداد. ولقد اعتبر(فريزر) أن مرحلة الأسطورة مرحلة متقدمة إذا ما قيست بمرحلة السحر التي سبقتها حيث كانت مرحلة الأسطورة إرهاصاً لظهور الفكر الفلسفي ثم العلمي.. وكما تصارع الموجة العرضية عوامل تلاشيها ما أمكنها.. فإن الأسطورة أيضا تبقى سابحة في ملكوت الخيالات المجنحات طاردة عوامل فنائها وكل ما يحد من اتساعها حتى يؤطرها التَّبْتُ من خلال تدوينها لتكون بالتالي مرآة للشعب الذي ابتدع نواتها وللشعوب التي شاركت في صياغتها وأضافت إليها من عندياتها.

---

(1) انظر ملحمة جلجامش. طه الباقر.

شخصية جلجامش

عينة كونية تتمتع بقدرات كمونية خارقة، فرد جبار استنفذ حدود الممكن فتاق يبغي المستحيل. (جامع للمتناقضات، مرة تراه ظالماً مستبداً.. وأخرى واعظاً حكيماً وثالثة مغامراً جسوراً. غير واضح المعالم) .. لا نعرف كيف صار بشرياً وإلهياً في آن معاً. وأنا لا أبغي من وصفي هذا رسم شخصيتة، حيث نوهنا قبل قليل أن الأسطورة.

لا تخضع للمنطق وإنما قصدت بهذا التوصيف إعطاء فكرة عامة عنه قبل أن أتحدث عنه كطرف ضمن معادلتين على الصعيدين الداخلي والخارجي.

فعلى الصعيد الداخلي: كان هو طرف المعادلة الأول وطرفها الثاني كان الشعب في البداية ثم صار (أنكيدو) الطرف الثاني بعد تعرفه عليه وقد استمد (جلجامش) قوته في المعادلة الأولى من مصادر أربعة ـ من قوته البد نية التي تكاد تصل إلى درجة التفرد منذ نشأته والتي تشكلت منها (أناه) الواحدية التي فاقت (النرسيسية).

ـ من طاقته الإلهية.. إذ كان ثلثاه إلهاً وثلثه بشراً. ومن يملك طاقة إلهية غير عادية قلما يستطيع أن يتغلب عليه كائن انساني ولو كان غير عادي.

ـ من حاكميته المطلقة حيث كان ملكاً فرداً مستبداً مقتدراً غير عظيم[1] (لخ) مطلق الحرية فيمن شاء وكيف يشاء. (والحرية المطلقة ـ كما يقول/اللورد أكتن/: ـ مفسدة مطلقة). الحرية المقيدة محذوفة من قاموس مفرداته وأساسيات حياته.

ـ استمد قوته بشكل غير مباشر من شعبه المتخاذل المسكين الوداع المستكين الذي إذا بلغ به اليأس غاية مداه اكتفى بشكوى حاكمه وظالمه إلى السماء. ناهيك عن أن بعضهم قد تطوع من تلقاء ذاته وأبلغه بقدوم (أنكيدو) ليكون من (أنكيدو) على حذر (مثال الصياد وأبيه) وهذا يذكرنا بقول الشاعر(خليل مطران):

---

(1) المقتدر: قد يكون مقتدراً بذاته أو عن طريق أدوات قمعية تكسبه القدرة. أما العظيم فعظمته تنبع من ذاته وإمكاناته الشخصية وليس من صفاته الظلم.. لذا.. فإن كل عظيم هو مقتدر لكن ليس كل مقتدر بعظيم.

obeikandi.com

كما أن شيوخ (أوروك) قد طلبوا منه السير خلف (أنكيدو) ليكون (انكيدو) بمثابة(فوج هندسة) في العصر الحديث مضحياً بنفسه في سبيل سلامة مليكهم المقتدر الظالم (جلجامش) وحتى عندما بلغ الصراع أشده بين الجبارَيْن فقد وقف الشعب من الصراع موقف المتفرج. هذا الشعب الذي فرح أشد الفرح بقدوم (أنكيدو) ليكون قوة تحدّ من جبروت وطغيان (جلجامش). هذا الشعب لم يكن موجوداً على مسرح الفعل لحظة وجوب وجوده وكأنه غير معني بالأمر وأن الرابح والخاسر عنده سيان. إذ لم يحاول أي واحد منهم توجيه دفة الصراع لصالح الشعب من خلال مساعدة ما يقدمها (لأنكيدو) وكأن هذا الشعب قد اقتنع بأنه لا يستطيع قهر قوي، والأَوْلى له أن يبقى(استاتيكياً= سكونياً) ونسي أنَّه يستطيع نصرة ضعيف.. فكيف بهذا الشعب لو نصر(انكيدو)الجبار؟! ولو أنه ساعد (أنكيدو) لحظة احتدام الصراع لا ستطاع أن يحدث تغييراً نوعياً في معادلة السلطة والشعب. إلا أن هذا الشعب فيما يبدو كان ينتظر خلاصه على يد غيره بلا ثمن ولا تضحيات، وإن شعباً ينتظر خلاصه على يد غيره. لهو شعب مآله لانتهاء وفناء، وكأني (بأنكيدو) بعد انتهاء الصراع مع (جلجامش) عندما كان مستلقياً على الأرض قد مسح ذلك الشعب الملتف حوله والمتخاذل حتى درجة الإمّحاء.. مسحه بنظرة فاحصة ساخرة ساقطة وكأنه يقول له: إن شعباً أتقن لغة (الصمت بل السكوت) يستحق أن يفعل به (جلجامش) ما يشاء. استجمع (انكيدو) قواه وخاطب (جلجامش) بجملة وكأنها خلاصة الخلاصات قائلاً: (يا جلجامش).. لقد رفع (إنليل) رأسك عالياً وقدر عليك الملكية على البشر.

أما على الصعيد الخارجي: فلقد كان طرف المعادلة الثاني هو العفريت (خمبابا) حارس غابة الأرز[لخ] إذ بعد أن تجرأ على (جلجامش)، ولأول مرة في تاريخ حكمه، رجل صارعه في الساح على مرأى ومسمع، وهذا الموقف لوحده بالاستغناء

(1) يقال: إن سورية هي بلد الأرز الأول كما أنها البلد الأول في زراعة الزيتون.

عن نتائجه، كفيل بإسقاط قدره وقدرته في أعين شعبه مادياً ومعنوياً. وقد أدرك ذلك (جلجامش) تمام الإدراك.

كما أدرك أن هناك قوة قد انوجدت في (أوروك) تماثله بأساً متمثلة (بأنكيدو) الممثل للشعب ولم يعد بعد وجود هذه القوة مطلق اليد في كل شيء. كما شعر ضمناً بموقف شعبه السلبي لحظة احتدام الصراع بينه وبين (أنكيدو) إذ لم يتقدم احد من رعيته للدفاع عنه لذا فقد وجد (جلجامش) أن من صالحه وضع استراتيجية جديدة يستطيع أن يفرغ من خلالها شحنته السلطوية ومخزون قوته الجبارة فهداه تفكيره إلى أن يوجه نظره إلى خارج أسوار (أوروك) فاختار صراع (خمبابا)(لخ).

صحيح أن (خمبابا) قوة لا ترد وجبروت لا يحد إلا أن (جلجامش) أيضاً ـ على الرغم من أنه أقل قوة ـ كونه إلهياً وبشرياً إلا أنه أيضاً قوة لا يستهان بها. ألم يصمم على لقاء (خمبابا) لوحده قبل موافقة (أنكيدو) على مرافقته ؟ فكيف بهذه القوة وقد أضيف إليها قوة (أنكيدو) لتولد من اتحادهما قوة جديدة تقف في وجه (أحادي القطبية ـ خمبابا). ولو قدر للصراع بينهما أن يقع لشهدنا معركة لاهبة تحرق الأخضرين لا يمكن مقارنتها بالصراع الذي احتدم بين (جلجامش وأنكيدو) من قبل على الرغم من أنهما (اقتتلا كثورين وحشيين هائجين وكسرا لحظة عراكهما قائمة الباب وارتج من صراعهما الجدار). إلا أن يد العناية الشمشية ـ من مبدأ الجبرية والقدرية ـ حيث يشكل القدر طرفاً في الصراع، قد تدخلت وحسمت الصراع بلمح البصر لصالح القوة المتحدة فأرسلت ريحاً صرصراً عاتية شلت حركة (خمبابا) وأزالته عن مسرح الوجود.

---

(1) تخبرنا الروايات أن ملك كيش (أجا) شعر بنوايا (جلجامش) التوسعية وقام بمهاجمة (جلجامش) وأعطاه مهلة محددة للاستسلام والخضوع وإلا فإنه سيدمر اوروك، لكن جلجامش بعد موافقة شعبه رفض الإنذار الموجه إليه فقرر المقاومة والدفاع عن مدينته فقام الملك (أجا) ملك (كيش) بتجميع جيوشه وحاصر (أوروك) حصاراً لم يدم طويلاً نتيجة اتفاق تم بين الملكين (جلجامش) و(أجا)، اتفاق نجهل مضمونه. انظر كتاب هندسة المبنى في السرد الأسطوري في ملحمة جلجامش. د. قاسم المقداد ط1/ دار السؤال. دمشق.

لغز الحياة والموت عند جلجامش: اعتقد السومريون أن الموت شبيه النوم ولما طلب (أوتونابشتيم) من (جلجامش) أن لا ينام ـ وهو يعرف مسبقاً أنه سينام ـ ولقد طلب منه ذلك كما يقول كتاب (منعطف المخيلة البشرية بحث في الأساطير). ليقول له: إنك (يا جلجامش) لا تستطيع مقاومة النوم.. فكيف تستطيع مقاومة النوم النهائي؟ ولعل تشبيه النوم بالموت نستشفه من خلال الآية الكريمة التالية (هو الذي يتوفاكم في الليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) يس/37/ ألم يسمِّ أجدادنا النوم بـ (الموتة الصغرى)؟..[لغ]

لقد كان الناس ـ قديماً ـ يموتون في عز شبابهم نتيجة المخاطر والأهوال المحدقة بهم و لم يدرك الأحياء من حولهم أن الموت ظاهرة طبيعية كما يقول (ول ديورانت) في كتابه (قصة الحضارة) وأن الموت قدر إلهي على البشر إلا أنه بعد أن انتقل الإنسان إلى مرحلة الاستقرار النسبي صار الموت شغله الشاغل لأنه أدرك أن لا محالة فانٍ، وأنه عائد إلى رحم أمه الأرض كما تقول (آنيا تيار) في كتابها (الأحلام)/1/. قال (نيتشه): (حذار من القول إن الموت مضاد للحياة). ولئن كان الموت عند (شوبنهور) هو الموضوع الأساسي للفلسفة فإن الفلسفة برمتها عند (أفلاطون) هي تأمل للموت. أما (سقراط) فقد قال: (علينا أن نغتم بالحياة ونفرح بالموت لأننا عشنا لنموت ونموت لنحيا) وحري أن نقف عند تساؤل (أبيقور) في هذا الصدد عندما قال: (نحن لا نخاف الزمن الذي يسبق وجودنا.. فلماذا نخشى الزمن الذي يلي موتنا؟ فإذا أتى الموت.. لم أعد موجوداً.. وإذا كنت موجوداً فالموت غير موجود).[بر]

محاولة الهروب من الموت: رغم أن الموت قدر محتم وهو ضريبة الولادة فلقد حاول الكثيرون التخلص من هذا القدر. لقد حاول (دهاق الفارسي) كما يروي (الأفستا) في (الأبستاق) العثور على شجرة الخلد فطاف شرقاً وغرباً ولم يتمكن من

---

(1) ولعل اللوح الثاني عشر بعد سقوط الألتين الموسيقييتن(بكو) و(مكو) يعبر أصدق تعبير عن حياة العالم السفلي /2/ - لغز عشتار. فراس السواح. ص /181/.

(2) من وجهة نظر إسلامية هذا التساؤل مرفوض لأن المرء سيحاسب على أعماله (يوم تجزى كل نفس ما كسبت) لذا فإن ما قبل أمر مختلف جداً عما (سيلي موتنا).

العثور على تلك الشجرة. ولقد حاول (أفرسياب) التركي سد سائر منافذ شقوق قصره إلا أن الموت قد دخل عليه متخطياً سائر الحدود والسدود. لقد فعل الكثيرون كما فعل (جلجامش) إلا أن كلاً منهم عاد خالي الوفاض مستسلماً لقدره. ألم يقل السيد المسيح: (في صميم الحياة تكمن خميرة الموت)؟ وقال(بولس) (بموتكم تتوحد حيواتكم مع المسيح في الرب).

ألم يقل الشاعر:

وإذا المنيـــة أنشـــبت أظفارهـــا ألفيـــت كـــل تميمـــة لا تنفـــع

وقول طرفه بن العبد:

لعمـرك إن المـوت مـا أخطـأ الفتـى لكـــالطُّوَلِ المرخـــى وثِنيـــاه باليـــد

متـى مـا يشـأ يومـاً يقـده لحتفـه ومـــن يـــك في حبـــل المنيـــة ينقـــد

ولقد وردت كلمة (الموت) ومشتقاتها في القرآن الكريم /161/ مرة[لخ] مما يدل على أن الإسلام قد أولى الموت اهتماماً خاصاً. (أينما كنتم يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) (إنك ميت وإنهم ميتون)(كل من عليها فان). ولقد حاول (جلجامش) قطف ثمرة الخلود ليجعل من ثلثه البشري ثلثاً إلهياً حتى يغدو بالتالي إلهياً كله ليتخطى جذب الموت بحيث لم تعد تنطبق عليه عوامل الفناء لامتلاكه أكسير الحياة الذي يدفع عنه قدره الفاني، إلا أنه أدرك أخيراً أن الخلود هو خلود المنجز الإنساني. ولعل سر الخلود كان محور الأساطير في الديانات الرافدية وآدابها حتى أن (آدم) قد أنزل إلى الأرض قبل أن يهتدي إلى شجرة الخلد بعد أكلة من شجرة المعرفة المحرم عليه أكلها ـ كما يقولون ـ وعلى سبيل التندر: قيل لأحدهم: مالك لا تجاهد؟. فقال: (والله إني أكره الموت وأنا على فراشي فكيف أسعى إليه على قدمي؟).

البعث بعد الموت: آمن السومرين بالحياة بعد الموت وأن موتاهم سيعيشون في العالم السفلي مع (كور) كما آمن البابليون بأن موتاهم سيعشون في العالم السفلي مع (أريشكيجال). وكان الكنعانيون يؤمنون أن البكاء على (أدونيس) وتمثيل

---

(1) انظر الموت في الديانات الشرقية. حسين العودات ص /33/./1/ ص. /20 -21/.

عذاباته وموته سوف يعينه على فك قيوده والصعود به من عالم الموتى.ذلك أن العلاقة بين الإنسان القديم والآلهة لم تكن علاقة اعتماد على طرف واحد بل كانت علاقة اعتماد متبادل. والمصريون أيضاً آمنوا بالبعث بعد الموت فلجأوا إلى تحنيط موتاهم ووضعوا معهم كل المستلزمات التي يحتاج المرء إليها حين عودته ثانية إلى الحياة فقالوا في (الكا) و(البا):

- **الكا**: من مستلزمات البشر وهي الجزء الأثيري في الجسم تلازمه في المقبرة وترجع إليه متى فني الجسد.

- **البا**: هي الجزء الحي الذي يترك الجسد عند الوفاة محلقاً نحو الآلهة ثم تهبط وتلتصق بالجسد ، لذلك كانوا يتركون فتحة في قبور موتاهم لدخول وخروج (الكا) و(البا).

- **وفي المسيحية**: يقول السيد المسيح: (من آمن بي ولو مات فسيحيا) (كل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد) انجيل يوحنا /11/

- **وفي الجاهلية**: على الرغم من وجود بعض الحنفاء الذين تألهوا قبل الإسلام ((أي قالوا: لا إله إلا الله)). فقد كان البعض منهم ينكر البعث بدليل الآية القرآنية (إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) وخاطبهم القرآن الكريم قائلاً: (أفحسبتم أنا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون).

لقد أكد الإسلام على البعث بعد الموت (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) و(يوم تجزى كل نفس ما كسبت) و(يوم يبعث من في القبور) و(السلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً) و(ثم أنكم بعد ذلك لميتون وأنكم يوم القيامة تبعثون) (إنا إلينا إيابهم. ثم إنا علينا حسابهم) كما اعتقد اليونان بأنهم سيعشون بعد الموت مع (هاديس) وأنهم سيحاسبون على أعمالهم التي اقترفوها في حياتهم. وهناك أسطورة رواها (جان بران) في كتابه (أفلاطون والأكاديمية) تقول: (إنه في عصر (كرونوس) وبداية حكم (زيوس) كان الأحياء الباقون يحاكمون الأحياء الذاهبين إلى الموت قبل موتهم، ولا يصدرون حكمهم عليهم إلا في اليوم الذي سيموت فيه هؤلاء. ولم تكن أحكامهم عادلة فقرر (زيوس) أن يبدل الطريقة

obeikandl.com

فحرّم في البداية على البشر معرفة الساعة التي بها يموتون، ثم صاروا يحاكَمون عراة بعد موتهم كي لا يؤثر ثراء ملبسهم على القاضي الذي يحاكمهم. وأخيراً لم يعد البشر هم الذين يحاكِمون من سيموتون بل يحاكمهم قضاه عراة موتى مثلهم. لقد استطاع الإنسان التفوق على سائر الكائنات حتى بعد موته إذ إن كثيراً ما يوصي البشر بعد موتهم بممتلكاتهم ـ منعاً أو منحاً ـ لأحد ذويه أو المقربين إليه وتتطبق وصيته بعد وفاته.

والطريف في الأمر: أن الأقدمين كانوا يعتقدون بإمكانية إرسال رسالة إلى الموتى عن طريق الأحياء إذ كان الملك يأتي بعبد ويلقنه فحوى الرسالة حتى يحفظها ثم يقطع رأسه ليوصل الرسالة إلى عالم الأموات، وكثيراً ما كان ينسى الملك بعضاً منها فيأتي بعبد آخر يلقنه ما نسي ويكون بمثابة ملحق للرسالة الأولى فيقطع رأسه ليلحق بالأول ليبلغ الموتى فحوى ما حمل. (ومرة كان لدى الملك وزير لئيم حقود كاره لكل من لم يطعه طاعة عمياء فكان كلما حقد على احد ذكره للملك ليرسل عن طريقه رسالة إلى الأموات بالطريقة السابقة، وذات يوم كانت لدى الملك رسالة مطولة يريد أن يرسلها إلى الأموات فلم يجد أفضل من وزيره حنكة وفهما وذكاء.

فكان الوزير في هذه المرة هو الرسول والرسالة.. وكانت القاضية).[لخ]

فكرة الموت عند جلجامش: لسنا بصدد التناقض الذي وقعت فيه الملحمة. إذ أن من يقرأ جمل (جلجامش) بعد فقده لصديقه (أنكيدو) يتوقع أن (جلجامش) لم يكن يعرف الموت من قبل إلا أنه عندما يقرأ الملحمة يجد أن (جلجامش) قد خاطب (أنكيدو) حين حذره (أنكيدو) من ملاقاة (خمبابا) قائلاً له: (الآلهة هم الخالدون في مرتع شمس. أما البشر فأيامهم معدوات على الأرض وكل ما فعلوا لهو ولعب) لقد حاول (جلجامش) تجاوزما قاله طاغور: (آه يا روحي.. لا تطمحي إلى الخلود بل استنفذي حدود الممكن) لكن السؤال الجوهري هنا: لم هز الموت (جلجامش) من الداخل بعد وفاة (أنكيدو)؟!! هل لأنه شعر بالوحدة؟! لا أبداً.. فلقد كان فرداً واحداً لا واحد إلاه قبل ظهور (أنكيدو) والفارق بين الحالتين هو التالي: يقول باسكال (إنني

---

(1) فكرة نهاية الوزير، كانت من عندي وقد أضفتها لتكون بمثابة نص مسرحي، أقوم بتأليفه.

في حالة جهل تام بكل شيء فكل ما أعرف هو أنني لا بد أن أموت يوماً ما... ولكنني أجهل الموت الذي لا أستطيع تجنبه).

لقد كان الموت بالنسبة (لجلجامش) كما هو بالنسبة لـ (باسكال) يعرف الموت لكنه لا يستطيع تحديده ولا إدراك كنه جوهره. أقول يعرف وكلمة يعرف تخضع لسلطان المعرفة التي تنتمي إلى الفكر، وبالتالي فإن الموت كان مرتسماً في حاسة شعوره وفكره.. يتذكره أحياناً مثلنا جميعاً، نعرف أن الموت لا بد من أن يدركنا عاجلاً أو آجلاً، إلا أنه عندما نفقد غالياً فإننا نبكيه بكاءً مراً وقد نبكي من خلال بكائنا عليه (المتوفى فينا مستقبلاً) إلا أنه ـ وفي هذه اللحظات بالذات ـ ينتقل الموت ـ بالنسبة إلينا ـ من سدة الفكر إلى عتبة الحس، وهنا تكمن الإجابة، فلقد انتقل الموت ـ بالنسبة (لجلجامش) ـ بعد وفاة صديقه (أنكيدو) من سدة الفكر ودخل فلك الحس، والفارق جد كبير بين الفكر والحس. يقول (هوراس): (الحياة ملهاة لمن يفكر.. ومأساة لمن يحس).

أنكيدو: قوة جبارة خام غير مؤدلجة مرت بمرحلتين:

ـ المرحلة الحيوانية: يوم كان يأكل العشب مع الظباء. كان سريعاً لا يشق له غبار. عظم منكبيه كعظم وحش. يخاف منه كل من يراه. يكسو جسمه الشعر.. جدائل شعره كشعر (نصابا ـ إله الحبوب والغلال) ولباس جسمه مثل (سموقان ـ إله الماشية).

ـ المرحلة الإنسانية: إذ استطاعت البغي أن تخرجه من حظيرته الحيوانية وتدخله الدائرة البشرية الإنسانية وبالتالي فقدت هذه القوة الجبارة الخام جزءاً كبيراً من قوتها يوم خسرت حيوانيتها وربحت إنسانيتها حيث تحول جزء كبير من القدرة الجسدية إلى قوة معرفية (خسارة مادية لقاء ربح معنوي)، ولو كان صراع (أنكيدو) مع (جلجامش) يوم كان حيواناً لكان لنتائج اللقاء بينهما شأنٌ آخر.

إن الحيوانات ـ بعد أن ذاق (أنكيدو) اللذة العظمى على يد البغي ـ صارت تخاف (أنكيدو) رغم أنه كان واحداً منها فقد أدركت بحسها الغريزي أنه لم يعد

من فصيلتها ولما هم باللحاق بها خانته قواه ولم يعد يستطيع العدو كأمسه الحيواني نلحظ هنا مستنتجين:

- أن (أنكيدو) خلق مباشرة من الطين بعكس (جلجامش) الذي ولد من أبوين.
- التروي وعدم الإفراط في المتع والملذات الجنسية. إذ بعد أن ضاجع (البغي) ستة أيام وسبع ليال لم يعد قوياً كالأمس. والحياة الجنسية ليست بالطليقة من كل قيد حتى في عالم الحيوان كما يقول (ول ديورانت)[1] إذ ترفض أنثى الحيوانات الذكر ولا تقبله إلا في فترات التهيج أما الإنسان فيختلف عن الحيوانات كما يقول: (بومارشيه) (الإنسان يأكل بغير جوع ويشرب من غير ظمأ ويتصل بالجنس الأخر في كل فصول السنة). إي يمارس الجنس على مدار العام ولهذا عليه إدراك هذه المسألة.

ويذكرنا ذلك بقول الشاعر:

واحفظ منيك من الفناء فإنه ماء الحياة يراق في الأرحام

- لقد دخل (أنكيدو) عن طريق الخبز والخمر والجنس دائرة الإنسانية بينما الكثير من الناس يخرجون من إنسانيتهم عن طريق الخمر والجنس لتمارس حيواتها بشكل وحشي.
- إحساس (أنكيدو) بمسألة الزمن. الحيوانات لا ماضي ولا مستقبل لها.. إنها آنية الحس والتصرف لكن بعدما غدا (أنكيدو) إنساناً وبلغ به المرض مبلغاً عظيماً بدأ يلعن الصياد الذي قاده إلى (البغي) ويلعن (البغي) التي قادته إلى (أوروك) حيث استنشق عن طريقها عبق المرأة السحري وذاق طعم حلاوة المدنية وأدرك لذة الكشف فأحس بدنو أجله وأنه لم يعد يملك متسعاً من الزمن ليتمتع بلذيذ الحياة.. فصار يعض أصابع الندم على ماض لا ألذ ولا أحلى إلا أنه صار حلماً لماض لن يعود. ((**وإدراكه للماضي والراهن هو إدراك لمسألة الزمن**))

ـ الحيوانات آكلة العشب: إذا كان الماء قاسماً مشتركاً بين الإنسان والحيوان والكائنات كلها فإن الإنسان والحيوان لا يتفقان في تناول سائر الأطعمة بل حتى الحيوانات فيما بينها لا تتفق على تناول طعام واحد.. فالطعام مختلف ألوانه

---

(1) **قصة الحضارة. ص./79/.**

ومختلفون آكلوه.

- ولقد كان (أنكيدو) كما تخبرنا الأسطورة آكلاً للعشب مع الظباء ولم يكن يقتات باللحم الحيواني الذي قد يصعب ترويض آكله أحياناً كما أنه لم يكن يقتات باللحم الإنساني وإلاَّ لكان من المستحيل ترويضه. لهذا سهل على (البغي) ترويض (أنكيدو) لتقذف به في وجه (جلجامش) لأن الحيوانات آكلة العشب مسالمة بطبيعتها ولذا فإن كثيراً من الزهاد والنساك والفلاسفة قبل (المعري) وقبل (كونفوشيوس) اكتفوا بأكل ما تنتجه الأرض فكانوا (نباتيين) فحرموا على أنفسهم حتى أكل اللحم الحيواني الحلال . وموقفه وهو على فراش الموت حين قال (يا صاحبي لقد حلت بي اللعنة، فلن أموت ميتة رجل سقط في ساح المعركة) ألا يذكرنا هذا القول بقول خالد بن الوليد (ر) حين قال: (ليس في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح، وها أنذا أموت على فراشي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء)؟.

البغاء المقدس: ((يا أخت هارون ما كان أبوك امرء سوء وما كانت أمك بغيا))

قرآن كريم

لا يمكن أن نقيس بمعيار أخلاقي واحد مصطلحاً أو مفهوماً وجد في حقبتين وبيئتين مختلفتين بينهما من البعد الزماني والمكاني ما بينهما. إذ أن للزمان والمكان دوراً هاماً في تغيير كثير من المفاهيم والمصطلحات. فكلمة (العصابة) مثلاً... مصطلح كان يطلق على ثلة الشرفاء كقول الشاعر (لله در عصابة نادمتهم....) ثم تحول المصطلح فصار يطلق على (قطاع الطرق) ولعل كلمة (البغاء) تؤكد ما نقول بشكل أعمق. إذ عندما تبدت عجائب جسد المرأة للإنسان القديم.. تصور أن هذه العجائب مرتبطة بالقدرة الإلهية (فقدس الدافع الجنسي واعتبره قبساً إلهياً يربطه بالمستوى النوراني الأسمى). ولم يكن الفعل الجنسي عنده متعة فردية ونشاطاً معزولاً، بل كان طقساً يربط الإنسان المتناهي بالملكوت اللامتناهي. وبما أن الجنس قديماً يشارك في دائرة المقدس كما يقول (ميرسيا ايلياد) فقد كانت النساء البابليات تقضي كل واحدة منهن يوماً في الهيكل لممارسة البغاء المقدس بدافع رغبة العطاء من الذات نيابة عن كل النساء وعلى كل امرأة في معبد (عشتار) أن تستسلم لأول غريب يطلبها

فتأخذ منه أجراً رمزياً غير محدد وتسلمه إلى الهيكل هبة منها لآلهة الحب وتوكيداً على انعدام الأهداف الغريزية لفعلها الجنسي. ولم تكن المرآة بقادرة على أن تعود إلى بيتها قبل أن يمر بها ذلك الغريب. ولذا كان فناء المعبد مليئاً على الدوام بنسوة في الانتظار ولربما قضى بعضهن سنوات قبل أن يقع عليهن اختيار أحد. ألم يفخر (شاروكين ـ صارغون)[لخ] بأنه ابن (بغي مقدسة) حين قال: (أمي كانت إحدى كاهنات المعبد، ولم أعرف لي أباً. وضعتني أمي في سلة وأحكمت غطاءها ثم أسلمتني للنهر الذي حملني، التقطني (آكي) ناظر ماء القرابين وتبناني: رباني حتى شببت فصرت أعني ببستانه، هناك رأتني (عشتار) فأحبتني وجعلتني ملكاً)[بر] لقد كانت بكارة المرأة كما يقول (ول ديورانت)[تر] ملكاً للآلهة (عشتار) حيث كانت تهب عذريتها في المعبد حيث ممارسة (البغاء المقدس) تحت رعاية إلهية قبل أن تلتزم الحياة الزوجية. كما عند الفينيقيين أن على كل فتاة أن تخدم في معبد (أفروديت) كبغي مقدسة تعطي جسدها للغرباء فترة من الزمن قبل أن تتزوج حيث كانت تمارس (البغاء) بكل أبهة الطقس الديني. ويروى أن (سيرينياس الفينيقي) ملك قبرص الأسطوري هو الذي أوجد هذه الطقوس عندهم وكانت بناته بمثابة(بغايا) في المعبد. إن البغاء المقدس كان شائعاً في سائر حضارة الشرق القديم يقول (هيرودوتس): (إن كل الشعوب القديمة ـ ماعدا الإغريق والمصريين ـ كانت تمارس الجنس المقدس في المعابد)[بر]. تقول (عشتار) عن نفسها: (أنا العاهرة الحنون)[سم] (أنا من يدفع الرجل إلى المرأة والمرأة إلى الرجل). ولقد كان العرب في جاهليتهم يعتقدون أن (العزى = الزهرة) مثيرة للجنس والشهوة وقد لعنها الرسول (ص) وأسماها الحميراء يقول (ص): (طلعت

---

(1) مؤسس أول إمبراطورية عظيمة امتدت من حدود (إيران) حتى شواطىء المتوسط أواسط القرن /3/ ق.م.

(2) نرى أن قصة وضعه في صندوق من قبل أمه ووضعه في النهر تشابه قصة (موسى)/ع/.

(3) قصة الحضارة ج2 ص/40/.

(4) لغز عشتار. فراس السواح. ص/193/.

(5) المصدر نفسه ص/191/.

الحميراء فلا أهلاً ولا سهلاً) إلا أن الإمبراطور البيزنطي (قسطنطين) ألغى (البغاء المقدس) في بعلبك وهدم معبد (عشتار) وبنى فوقه كنيسة.

ويضيف المؤرخان (هيرودوتس وسترابو) في فترة نضج المجتمع الذكوري الإغريقي أن العروس في ليلة زفافها كانت تضاجع كل من يجلب لها هدية زواج فكانت تضاجع أقارب العريس دفعة واحدة مبتدئة بأكثرهم قرابة فإذا انتهى الأقارب جاء دور الأصدقاء وأخيراً يأتيها عريسها لأول مرة فتصبح صالحة للاتصال الزوجي[لخ] وفي هذه الممارسة توكيد على حق القبيلة قبل حق الزوج الذي يحتكر جسدها طيلة حياتها لأن الأقدمين يعتقدون أن المرأة لم تعط كل جمالها وفتنتها لتبلغ أرذل العمر في أحضان زوجها. والزواج كما يقول (ول ديورانت)[بن]: هو من ابتكار أجدادنا الحيوانات وهو أعمق في التاريخ من الإنسان ومفهوم الزنى لم يأت إلا في وقت متأخر[تن]. (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً) قرآن كريم، وما البغي التي روّضت (أنكيدو) إلا بمثابة رسولة (عشتار) لأنها قامت بدورها التي رسمته لها الملحمة (علّميه وظائف المرأة) ولقد لعبت دورها ضمن خطة مؤدلجة كون المرأة هي المعلم الأول في التاريخ الحضاري فأحدثت في (أنكيدو) قفزة نوعية من خلال نقله من الهمجية إلى الحضارة.

الخبز: (علام يا (أنكيدو) تلعن البغي؟.. تلك التي علمتك كيف تأكل الخبز اللائق بالألوهية) (كل الخبز يا (أنكيدو)... فإنه مادة الحياة). (من الملحمة)

علّمنا أهلنا مذ كنا صغاراً احترام الخبز فإن وجدناه مرمياً على الأرض علينا أن نحمله ونضعه في مكان مرتفع بعد تقبيله تقبيلاً يصل إلى مرحلة التقديس أما إذا لمسناه بأرجلنا ولو كان ذلك سهواً أو عَرَضا فعلينا أن نتضرع ونستغفر والويل لنا إن لم نفعل ذلك، لكنهم ما علمونا أن نرفع مثلاً قطعة البطاطا ونقدسها كما نقدس قطعة الخبز على الرغم من أنهما طعامان يدخلان في ما يسمى بـ (النعمة) بعدها بلغنا مرحلة اليفاعة واستمر احترامنا وتقديسنا للخبز وقد أضفنا إلى السبب الأول الذي

---

(1) قصة الحضارة ص/192/.

(2) قصة الحضارة ج2/ ص /66 -67.

(3) دراسات إسلامية معاصرة. د. م احمد شحرور. ص/54/.

obeikandl.com

ذكرناه سبباً آخر حيث بدأنا نتصور جهد الفلاح ابتداء بحراثة الأرض فبذارها فريِّها حتى تغدو الحبة سنبلة ثم حصادها فدرسها فطحنها فعجنها فخبزها ولا تصل إلينا لقمة الخبز إلا بعد عملية صعبة مركبة يذوق الفلاح من خلالها الأَمرَّيْن ويبذل دم قلبه من أجل وصولها إلينا. لكن بعد أن أخضعنا الأمر للدراسة والتحليل تبين لنا أن القمح يعود تقديسه إلى أيام ضاربة جذورها في أعماق التاريخ.إذ عندما اكتشف الإنسان القمح البري بدأت مرحلة استقراره النسبي ودخل الخبز في نظامه الغذائي وغيّر من عاداته الاجتماعية ونمط تحركاته السكانيّة فآثر حياة الاستقرار وكان الرغيف برزخاً عبر الإنسان من خلاله من المرحلة الهمجية إلى المرحلة الحضارية.

تروي أسطورة الآلهة الابن أن اكتشاف الزراعة في العصور النيوليتية لم يكن نتيجة فعل بشري بل نتيجة عون سماوي.

وسنبلة القمح الأولى التي زرعتها لم تكن سوى جسد الإله الابن القتيل التي أرسلت به الأم الكبرى إلى العالم السفلي. فهو الإله الميت الحي الذي يهبط إلى باطن الأرض في الخريف ثم يعود متشحاً بخضرة الربيع مكملاً دورة حياته السنوية التي تركزت حولها حياة المستوطنات الأولى وديانتها وطقوسها.

و(عشتار = عيش الأرض) لم يكن هبوطها إلى العالم السفلي موتاً ولم يكن صعودها بعثا لأنها سيدة العالمين معا. تمكث في العالم العلوي جزءاً من السنة تهبه الخبز والبركة والحياة ثم تهبط إلى العالم السفلي في جزء السنة الأخير لتحكم مملكة الأموات تاركة عالم الأحياء في جفاف[1].

كما أن (أوزوريس) كما تقول الأساطير المصرية القديمة هو أول من نقل المصريين من مستوى الوحوش البدائية إلى مستوى البشر وذلك عن طريق تعليمهم زراعة القمح وأكل الخبز، وقد دعى المصريون (إيزيس) (إيزيس الخضراء سيدة الخبز) (ودعاها اليونان سيدة السنابل) وفي الأساطير الإغريقية نجد أن (ديميتر = هي آلهة الحبوب) بعامة والقمح بصورة خاصة. وهي التي اكتشفت زراعة القمح لكن ربيبها الشاب (تربتليموس) هو الذي قام بنشره في شتى أنحاء العالم بتوجيهها

(1) لغز عشتار. فراس السواح.ص/118/.

ومساعدتها، وقد دعوها بالآلهة الشقراء كناية عن سنابل القمح الصفراء الناضجة. إن اكتشاف (ديميتر) لزراعة القمح ونقلها إلى البشر ليس إلا إشارة إلى كونهاهي نفسها روح القمح القديمة فكانوا يدعونها بـ (آلهة القمح وسيدة السنابل). و(سيريس) عرفت أيضاً بـ (أم المحاصيل) والتي لعثورها على ابنتها (بيرسفوني) أعطت الناس قمحاً وخبزاً بعد أن كانوا يلتقطون جذور البلوط البسيط طعاماً.

تقول الأسطورة: لقد خطف (هاديس) (بيرسفوني) فسمعت أمها (ديميتر) صرخات ابنتها فهبت لنجدتها ولما عجزت عن معرفة مكانها حيث التحمت الأرض فور نزولها إليها أشارت إليها(هيقات) أن تستشير الآلهة (هيلوس) فأخبرتها بما فعل (هاديس) فقررت (ديميتر) الانتقام من مجمع الآلهة لسماحهم بما حدث لابنتها، فمنعت قواها الإخصابية عن الأرض فتحولت إلى حقول مالحة ثم جاءها الآلهة واحداً واحداً وعلى رأسهم (زيوس) كبيرهم يرجوها أن ترفع لعنتها عن الأرض فاشترطت عودة ابنتها. أمر (زيوس) (هرمز) أن يمضي إلى (هاديس) ليبلغه برجوع (بيرسفوني) إلى أمها فأطلق (هاديس) (بيرسفوني) لكنه أعطاها طعاماً يعيدها إلى العالم السفلي فور خروجها. عرفت (ديميتر) بأمر الطعام فلم تنفذ وصيتها ثم اتفق الجميع على أن تقضي (بيرسفوني) مع زوجها (هاديس) في العالم السفلي جزءاً من السنة وجزءاً مع أمها (ديميتر) في العالم العلوي، وعندما أعطت (ديميتر) أوامرها للطبيعة صارت تتحول (ديميتر) إلى (بيرسفوني) عندما تهبط إلى العالم الأسفل وتتحول (بيرسفوني) إلى (ديميتر) عندما تصعد إلى العالم العلوي وهنا نجد أن الإله (اقنومان) في واحد وتجليان للجوهر نفسه (الأم وابنتها) ومثلما تتحول (ديميتر) إلى (بيرسفوني) و(بيرسفوني) إلى (ديميتر) يتحول قمح السنة الماضية الذي هبط إلى باطن الأرض إلى قمح السنة الجديدة الذي خرج من الأرض. إن (ديميتر) هي قمح السنة الماضية و(بيرسفوني) هي قمح السنة الجديدة[لخ]. لذا فإن دورة حياة القمح ليست سوى دورة حياة الآلهة التي تقضي جزءاً من السنة في العالم السفلي وجزءاً في العالم العلوي. إن بذرة القمح تختزل سر الطبيعة كلها وسر الحركة الإلهية الكامنة وراءها يبذرها

---

(1) لغز عشتار. فراس السواح . ص/119 -120 -121/.

الزارع في باطن الأرض فتظهر في الربيع ثم تتحول في الصيف إلى سنابل ناضجة.

وفي المسيحية: يقول القديس (أمبروزي) (في رحم مريم المقدس زرعت حبة واحدة ونحن ندعوها بـ (بستان القمح). ونقرا في انجيل(يوحنا) على لسان السيد المسيح: (الحق أقول لكم...إن لم تقع حبة الحنطة على الأرض وتمت فإنها تبقى وحدها. لكن إذا ماتت تأتي بخير كثير.. من يحب نفسه يهلكها لأنه في صميم الحياة تكمن خميرة الموت وفي غياهب الموت تكمن بذرة الحياة). ويقول أيضاً: (أنا هو خبز الحياة من يقبل إلي لا يجوع ومن يؤمن بي فلن يعطش أبداً) ويقول في إنجيل يوحنا /6/: (أنا هو خبز الحياة، أباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا. هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت. أنا هو خبز الحياة نزل من السماء إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد، والخبز الذي أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم) يوحنا /35ـ48ـ51/. فجسد السيد المسيح الذي وهبه من أجل البشرهو قمح الحياة الأبدية وفي ليلة العشاء الأخير، يقوم بتقديم جسده قرباناً للتكفير عن خطايا البشر: وفيما هم يأكلون،أخذ يسوع الخبز وبارك وأعطى التلاميذ وقال: (خذوا كلوا هذا هو جسدي) وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا: (اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد يسفك من أجل الكثيرين لمغفرة الخطايا) **ألم يقل السيد المسيح:**

(ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان)؟ وقال تعالى في كتابه العزيز (.... مثله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة). لقد كان إله الخصب الميت (زيبي) في حضارة (الآزيتيك) بأمريكا الوسطى مازال ينشد عند اقتحام الأوربيين للعالم الجديد (ربما سأموت وأتلاشى وأغيب، أنا عود القمح الطري، ولكن قلبي جوهرة خضراء، لذا سأعود أخضر كما كنت، ولسوف يولد البطل كرة أخرى[1] لخ).

الزيت: (مسح جسده بالزيت فصار إنساناً) من الملحمة

---

(1) لغز عشتار. فراس السواح ص/287/.

سورية الطبيعية أول من عرفت زراعة الزيتون منذ أكثر من /ستة ألاف عام/ ثم انتقلت إلى اليونان عبر الأناضول ويؤكد ذلك ما وجد من جرار الزيت والزيتون في موقع (إيبلا) الأثري.

قدس الأقدمون جميعاً شجرة الزيتون مصدر الزيت الذي كان المادة ـ التي تكاد تكون الوحيدة ـ التي يستضاء بها. ولعل تقديس (البابليين) لشجرة الزيتون قد دفع شاعرهم (طالي كرناش) ليكتب قصيدة على لسان الشجرة يقول فيها: (أنا أطولكن عمراً وأصبركن على الجدب وأقواكن على ضرر القشف الكائن من العطش لأن عودي صليب دهني، وورقي ثابت لا ينسلخ عني كما تنسلخ أوراقكن عنكن وأنا التي إن أحرقت النار شيئا من أجزائي كان في رماده من المنافع والعوض ما هو أكثر من عدمي.....

وأنا الدهنية التي دهني يشبه لون الذهب وفيه شفاء من ثمان وتسعين علة ومرض وأنا المباركة.. التي من نظر إلي كل يوم عند طلوع الشمس واحتضنني بيديه وانضم إلي سررته وفرحته ودفعت عنه ـ بإذن الآلهة ـ يومه ذلك جميع الأوصاب والهموم والعاهات والأحزان كلها، والخيالات الردية.

أنا اسم إلهي (زحل) الأعظم الأكبر أنا التي سكنت في كل أرض مقدسة مباركة ومن أجلي ولموضعي تقدست بعض البلدان وتباركت بعض البقاع. أنا التي يأنس بي كل مستوحش.. حزت الشرف كله، وكمل في الفضل، وتم لي الكمال. فمن عبدني فاز. ومن أعرض عني خاب). (نقلتها بتصرف) استعملها الرومان رمزاً للسلام في فتوحاتهم[لخ]. وبعد اكتشاف أمريكا عام /1492/ م انتقلت زراعة الزيتون إليها. وتستطيع شجرة الزيتون التكيف مع ظروف بيئية مختلفة وقد سُمِّيَتْ بـ **(الشجرة المباركة)**.

تقول أسطورة يونانية إنه في ليلة واحدة على مقربة من نبعة ماء نبتت شجرة زيتون ضخمة فأرسل الملك (عرافة دلفي) ليعرف سبب ذلك أجابته العرافة: (إن شجرة الزيتون هي الآلهة آثينا)[بر] وإن نبعة الماء هي الإله (بوزيدون). لقد ذكر الإنجيل أن

---

(1) أسرار زيت الزيتون. محمد فائز أصفري. ط 1 /1997/ ص/6 -7 -8/.

(2) لغز عشتار. فراس السواح. ص/37/.

نوحاً/ع/ بشر باليابسة بغصن زيتون حين عادت إليه الحمامة. ألم يقسم بها المولى عز وجل (والتين والزيتون) وليس هناك أدل على عظمة هذه الشجرة المباركة مما ذكرته الآية الكريمة التالية: (الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيهما مصباح المصباح في زجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور). وقال (ص): (كلوا الزيت وادهنوا به ففيه شفاء من سبعين داء ومنها الجذام) لذا فلا غرو أن نجد أن (أنكيدو) عندما مسح جسده بالزيت صار إنساناً.

الماء: ((احفر بئراً في الأصيل، ولتكن قربتك ملأى بالماء النقي على الدوام، قرب الماء البارد من شمش.. فحفر بئراً تقرباً للإله شمس)) من الملحمة.

إن ولادة كل ما في الكون من ماء كاف لإدراك سر العظمة الجلى لهذا الأكسير. (و كان عرشه على الماء) (وجعلنا من الماء كل شيء حي) هي نبض الموت بسر الحياة ومن قطراتها تخصب الأرض بالخير وتتراقص الأزهار نشاوى كأنها باقات من قوس قزح. (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت)... منها خُلِقَ الحيوان: (والله خلق كل دابة من ماء) ومن هذا العنصر السحري خُلِقَ الإنسان (فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) ولما لاحتواء الماء على سر الخلق فقد خص الله نفسه بهذا السر المقدس وتحدى الناس بسؤاله الاستنكاري في قوله تعالى: (قل إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ؟) ولقد ذكر القرآن الكريم كلمة الماء في (ثمان وستين آية) صراحة في مواضيع مختلفة يركزبها على عملية الخلق والحياة. وكان المصريون القدماء ينادون (أوزوريس) قائلين النيل نبعه نضح يديك.. جعلوه هو والنيل شيئاً واحداً فقالوا: أنت النيل. الآلهة والبشر يحيون من جريانك.

ويقول شوقي عبد الحكيم في كتابه (الفولكلور والأساطير العربية)[لخ]: (لقد قدس الساميون بعامة موارد المياه واعتبروها مهبط عرش الآلهة. وإن إقامة الإله (بعل أو هبل) على بئر ماء لَهُوَ إشارة إلى علاقته بالرزق والإخصاب عند العرب وكذلك

---

(1) ص/33/.

عرف بكونه الإله واهب النعم) وإذا اعتبرت الثقافة الهندية أن المرء يولد ولادة ثانية عندما يغدو مثقفاً فإن المسيحية قد اعتبرت أن الإنسان يولد ولادة ثانية بعد أن يتعمد بالماء أسوة بالسيد المسيح الذي ولد ولادة ثانية بعد تعميده. قال يوحنا المعمدان: (أنا أعمدكم بماء التوبة لكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني الذي لست أهلاً لأن أحمل حذاءه هو الذي سيعمدكم بالروح القدس) وبعد أن تعمد السيد المسيح إذ بالسماوات قد فتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتيا عليه[لخ].

قال السيد المسيح: (الحق الحق أقول لكم إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن ينفصل عن ملكوت الله).

و إن طقس التعميد كان معروفاً في الديانات السورية ويرجع أصله إلى عبادة إله الماء (السومري ـ البابلي) (إيا) ويعني اسمه (إله بيت الماء)[بن]. ولقد حظي الغرقى ـ في عصور الإنحطاط ـ بكرامات خاصة لابتلاع الماء لهم بحيث يدعى الغريق بـ (السيد) أو (المحمود) لأنه مات في رحم الماء روح الكائنات كلها، لذا فلا غرو أن يحفر (جلجامش) بئراً تقرباً للإله (شمس).

الطوفان: رأى الآلهة العظام أن يحدثوا طوفانا وقد زينت لهم قلوبهم ذلك، فاجتمعوا وكان معهم (أنو) أبوهم/ و(أنليل) البطل مشيرهم / و(ننورتا) (مساعدهم ـ وزيرهم) و(أنوكي ـ حاجبهم). وكان حاضراً معهم (نن ـ ايكي ـ كو ـ أيا) فنقل كلامهم إلى كوخ القصب وخاطبه: (يا كوخ القصب... يا جدار.. اسمع يا كوخ القصب وأفهم يا حائط يا رجل (شروباك) يا ابن (أوبارا/ توتو)، قَوّض البيت وابْنِ لك فلكاً، تَخَلَّ عن مالك وانْجُ بنفسك، انبذ الملك وخلص حياتك، واحمل في السفينة

---

(1) إنجيل متى/3/.

(2) وكانوا يرمزون إليه بحيوان خرافي نصفه الأعلى جدي ونصفه الأسفل سمكة وكانوا يرمزون لبرج (أنكي) السماوي بالحيوان نفسه ـ (برج الجدي) وعرف الإله (أنكي) في الفترات المتأخرة بـ (أوانيس) ويلفظ باليونانية(ايوانيس) وباللاتينية (يوحانيس) وبالعبرية (يوحنان) ومن هنا ندرك العلاقة السرانية بين إله الماء (أنكي) وبين (يوحنا المعمدان). انظر لغز عشتار. فراس السواح. ص/400/ وذلك نقلاً عن (جوزيف كامبيل).

بذرة كل ذي حياة (السفينة التي ستبني.. عليك أن تضبط مقاييسها، وليكن عرضها مثل طولها). من الملحمة

الطوفان حَدَثٌ عالمي جلل حل بأكثر الشعوب ـ إن لم نقل بسائرها ـ كما تروي الأساطير والمعتقدات الدينية وكل يروي أسطورة طوفانه بصورة كيثرا ما تماثل وقليلاً ما تخالف العرف السائد. ف (ابن خلدون) يذكر في (مقدمته) حين حديثه عن الجبابرة أن شخصية جبارة خرافية اسمها (عوج بن عنان) يقال إنها المخلوق الوحيد الذي لم يهلكه الطوفان، وأسطورة الطوفان الهندي تحدثنا عن السمكة (غاشا) وبطل الطوفان (مانو = نوح).

تقول الأسطورة: (إنه عندما أحضروا الماء لـ(مانو) كي يغتسل أمسكت يده بسمكة وقالت له: (سأنقذك من طوفان يحمل معه سائر المخلوقات. لذا عليك أن تحفظني داخل وعاء فإذا كبرت وضاق بجسمي الوعاء فخبئني داخل الأرض[1] وإذا كبرت خذني واطرحني في البحر وعندما كبرت (غاشا) وصارت أكبر أنواع السمك (أي صارت بحجم الحوت). أخبرت (مانو) بزمن الطوفان وأن عليه أن يحضر إليها راكباً سفينة بحيث إذا أتى الطوفان فستكون منفذته.

الطوفان التوراتي: وقال يهوه لنوح في سفر التكوين السادس والسابع (ها أنا آتٍ بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء كل ما في الأرض يموت ولكن أقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين. و(فعل نوح حسب ما أمرَهُ به الله) وبنى الفلك من خشب(جفر) كما تروي التوراة. وقد نجد تشابها قد يصل إلى درجة التماثل بين الطوفان التوراتي والطوفان الذي حدثنا عنه القرآن الكريم: (فكذبوه فأنجيناه ومن معه في الفلك) الأعراف /64/ ويونس /73/ (فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون فإذا

---

(1) نلحظ هنا كأن هذه السمكة هي سمكة (برمائية).

استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين) المؤمنون /27ـ28/ (فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون) الشعراء /119/

الطوفان اليوناني:

يماثل أسطورة الطوفان الرافدية كونه مقتبساً منها تقول الأسطورة (إنه بعد أن مُلِئت الأرض جوراً وطغياناً بحيث صار الجور يهدد الآلهة قرر (زيوس). إهلاك الحياة على الأرض وذلك بإرسال طوفان يمحو كل شيء فأوضح (زيوس) لـ (برومثيوس) ما بيت عليه بشأن الطوفان فأخبر (برومثيوس) ابنه (دوكاليون) عن طريق حورية المحيط(لخ) (كليمنته) ونصحه بأن يبني مركباً يلتجيء إليه مع زوجته (بيرا)(بر) وبعد أيام الطوفان التسعة(تر) رست السفينة على جبل (البرناس = أرارت = نصير).

الطوفان الصيني: أسطورته ملفتة للنظر، تقول الأسطورة: إنه عندما فاض (النهر الأصفر) وآتى بالطوفان هرع (طايو) وشرع ببناء السدود وفتح القنوات فيها ليتحكم بالماء لري الأراضي الصينية. ومن يستقرىء هذه الأسطورة يستنتج أن (طايو) لم يستسلم للطوفان بصنع سفينة لينجو بثلة من صحبه بل حاول الاستفادة من الطوفان ليس من مبدأ الضرورات تبيح المحظورات فقط بل من حيث أن الضرورات تصنع المعجزات فحاول (طايو) بل قل استطاع أن يحيل الدمار إلى عمار والفناء إلى بقاء. إلا أن الطوفان العالمي القادم ـ إذ حدث لا قدر الله ـ فسيكون طوفاناً ذرياً مدمراً ساحقاً ماحقاً لن يبقي ولن يذر على الأرض من دابة ولا نبات ولا بشر ولا حياة.

الحية: (ترى.. أَكُلُّ ما جنيت.. كان من أجل حية التراب؟!). من الملحمة

---

(1) نلحظ هنا إخبار (دوكاليون) عن طريق الحورية يماثل إخبار (أوتونابشتيم ـ هو الذي رأى الحياة) عن طريق كوخ القصب.

(2) ويقال: إن اسمها (فرحة).

(3) ومنهم من يقول: إن الطوفان استمر خمسة وأربعين يوماً ومنهم من يقول /40/ يوماً ومنهم من يقول /150/ يوماً.

كان القدماء طوطميين يعبدون العجل والثعبان لاعتقادهم بأن لهما قوة إلهية[لغ]. كما ربطوا بين المرأة والأفعى معتقدين أن المرأة في أصلها كانت أفعى والأفعى كانت إمرأة[بر]. واعتقدوا أيضاً أن الحية والشيطان والمرأة وجه واحد للبطل نفسه[تر]. فاسم الحية ـ في العربية ـ مشتق من الحياة ـ واسم (حواء) أيضاً يعني الحية أو سيدة الحياة. كما اعتقدوا أن أصل الحية من الجن وأنها خالدة لا تموت كونها تجدد جلدها كلما هرمت. وهي إحدى العناصر المسؤولة عن خسارة الخلود مثال (الحية مع آدم وحواء) و(الحية مع جلجامش). والحية أم الغواية اعتبرتها التوراة أحيل الحيوانات جميعاً. ألم يختر الملاك (لوسيفر) انتحال شخصيتها لإغواء أول بشريين في الجنة؟[بر]

---

(1) قصة الحضارة، ول ديورانت ج/1/ص /106/.

(2) لغز عشتار. فراس السواح ص/136/.

(3) الفلكلور والأساطير العربية. شوقي عبد الحكيم ص/136/.

(4) تقول نظرية التكوين المسيحية انطلاقاً من العهد القديم إنه قبل ظهور المكان وجريان الزمان بأمر من الكلمة خلقت أولى الكائنات الحية المفارقة للطبيعة الإلهية وهم الملائكة أولئك المخلوقات النورانية حيث احاطت بالنور الأعظم في هالات وكل هالة تدل على رتبة من رتب الملائكة وأعلاها (الكيروبين) و(السرافيم) وصولاً إلى الملائكة العاديين ومن بين ملائكة الطبقة الأولى ملاك اسمه (لوسيفر) ـ (حامل الضياء). وكان هذا الملاك فائق الجمال واعياً أشد الوعي لملكاته وقدراته وجماله معتقداً أنه من الصعب على الخالق أن يصنع ما هو أعظم منه لأنه مثال على معجزة الخلق. كان (لوسفير) دائم التحديق في مركز النور الأعظم حتى صار يشاركه في رؤى المستقبل فعرف أن الإله يعد لإيجاد مخلوق يفوق مرتبة (السرافيم والكيروبين) من لحم ودم (يعني الإنسان) وأن امرأة من هؤلاء ستغدو مليكة عليه ففضل أن يلتزم مجده الملائكي الذي وهبه الرب إياه ويظهر تمرده على الله رغم علمه الكامل بما سيجره عليه هذا التمرد من لعنة. فأدار ظهره لنور الخالق وأخذ على عاتقه إحباط صنائع الله وإفساد البشر الذين أعدت لهم تلك المكانة العالية. وبعد خلق الله لآدم أمره أن لا يأكل من ثمرة المعرفة. تسلل (لوسيفر) إلى الجنة في هيئة أفعى والتف حول شجرة المعرفة، وأغوى حواء بالأكل من الشجرة المحرمة. ولما مر الإله عرف فعلتهما فقال لآدم: هل أكلت من الشجرة التي أمرتك أن لا تأكل منها؟ قال: إن المرأة هي التي أعطتني. قالت المرأة: الحية هي التي أغوتني. فقدر الرب على حواء ومن يليها من نسل البشر أن يلدن أولادهن بالوجع والألأم وأن يكن تبعاً لأزواجهن. ومنذ ذلك التوقيت ظهر الموت إلى الوجود وظهر الألم، وظهر الشر مخالطاً لنسيج الوجود (انظر كتاب لغز عشتار. فراس السواح. ص/393 -394 -395/ وقارن هذه القصة بقصة آدم

والأفعوانان المتقابلان عند السومريين هما رمز (لعشتار) وهما عند المصريين حارسان للميت[لخ] والأم الكبرى (تعامت) البابلية كانت على هيئة تنين أو أفعى. كما اعتقد الهنود بقدرة الأفعوانين الملتفين على إعطاء الخصوبة للعاقرات. لقد كان اليهود يعبدون الحية ويدعونها (نحشتان)[لد] ويدلنا ذلك على قبيلة (لاوي = لوياثان = الحية).

أما في الميثولوجيا الإغريقية فنجد أن معبد (دلفى) كان مكرساً للأرض الأم (جيا) وكانت تحرسه الأفعى العملاقة (بيثون) إلى أن جاء (أبولو) وقتلها واغتصب المعبد وبقيت موكلة بالنبوءة في معبد (أبولو) وبقيت محافظة على أسمها (بيثون). والأفعى التي علمت (اسكليبيوس) إله الطب أسرار النبات والأعشاب بحيث غدا قادراً على إحياء الموتى وكان مديناً ببراعته للأفعى التي علمته أسرار النبات وخصائصه. ولما انقص (اسكليبيوس) عدد الموتى قضى عليه (زيوس) بصواعقه المميتة. كما أن هناك أفعى[لو] أخرى أعطته ـ بعد موتها ـ دمها الذي يشفي ويميت وهي المرأة الأفعى (ميدوزا) التي قتلها نصف الإله (بيروزوس) وأعطى دمها لـ (اسكليبيوس) الذي جمع دماء أوردتها اليمنى في وعاء ودماء أوردتها اليسرى في وعاء آخر. فدماء الجهة اليمنى شافية ودماء الجهة اليسرى قاتلة، ثم صارت الحية في اليونانية رمزاً للإله (اسكليبيوس) إله الطب. إن كثيراً من الآلهة ـ كما تخبرنا الأساطير ـ قد صارعت حيات فـ (مردوخ صارع الحية لايو) و(زيوس صارع الحية طيفون) و(أبولو صارع الحية بيثون) و(يهوه صارع الحية لوياثان) و(شبه الإله بيروزوس صارع الحية ميدوزا) ثم جرى أخيراً إنزياح ميثولوجي فصار رمز الحية الملتفة يدل على الطب بعامة ونلحظ ذلك على سائر أبواب الصيدليات أنى وجدت.

البقرة: لا غرابة في أن تكون الآلهة البقرة (نينسون) أُمَّاً (لجلجامش) فالبقرة ذات

وحواء وإبليس في كل من (التوراة) و(القرآن الكريم) الكيروبيم ـ الثيران الطائرة. السرافيم ـ الحيات. انظر كتاب درة الدين اليهودي. موفق عابدين ص/15/ ط 1 /1997/. دار الكنوز الأدبية. بيروت/1/.

(1) عبده الصفر. الأن نادوا ص/19/.

(2) سفر الملوك الثاني 4/3/18 ومنها جاءت كلمة (حنش) العاميّة.

(3) اعتقد اليونان أن عدد أضلاع الحية يعادل أيام الشهر القمري.

شأن في سائر الأساطير العالمية فهي في الأساطير المصرية القديمة أم الآلهة جميعاً من قبل أن توجد الأشياء وهي التي أنجبت إله الشمس (رع) ثم أتبعته ببقية الآلهة فـ (إيزيس) و(هاتور)[لخ] كانا يظهران على هيئة رأس بقرة[بر] والإله (نوت ـ قبة السماء) كانت تصور في هيئة بقرة كاملة والأم المصرية (نيت) كانت تدعى البقرة السماوية والإله (عناة) لقبت بـ (العجلة) وفي صلاة سورية لـ (إنانا) في عهد (صارغون الأول). تقول: (أيتها البقرة الجموح.. أنت أعظم من كبير الآلهة (آن) = إله السماء)[تر]. ومنذ أن رأى الإنسان في القمر تجسيداً (لعشتار) ربط في ذهنه ـ رمزياً ـ بين قرون البقرة وقرني الهلال[بر]. وتروي الأساطير اليونانية أن (ديونيزيوس) جاء كمولود ذي قرون كونه مولوداً من بقرة. كما تروي الأساطير اليونانية أيضاً أنه كان يحكم (أراجوس) الملك (إيتاخوس). وكان لهذا الملك ابنة جميلة اسمها (أيو) تعمل عند الإلهة (هيرا) زوجة (زيوس) فأحبها (زيوس) ولما عرفت زوجته (هيرا) بهذا الحب أراد (زيوس) أن يخفي حبه عن زوجته فحول هذه الفتاة إلى (بقرة) فطلبت منه (هيرا) أن يهديها هذه البقرة ففعل ووضعت (هيرا) لحراستها وحشاً له عيون كثيرة. لكن (زيوس) ألقى النعاس على هذا المخلوق فما كان من (هيرا) إلا أن سلطت عليها حشرة ضارية. فكانت تهيج كلما لدغتها هذه الحشرة حتى بلغت في جريها أرض مصر فلمسها (زيوس) فأنجبت له (أبافوس ـ المولود من اللمس) وهو أول ملوك مصر. ولا يزال الهنود يقدسون البقرة فلقد كانت عندهم قديماً تجسيداً لكل من الإله (اندرا) والإله (شيفا) وما تقديسها سوى رواسب طوطمية مازالت ماثلة للعيان حتى الآن.

الطين: (غسلت (أرورو) يديها ، وأخذت قبضة من الطين... وخلقت في البرية أنكيدو الصنديد). (من الملحمة)

---

(1) شكل من أشكال (إيزيس).

(2) شكل من أشكاله.

(3) المصدر نفسه ص/71/.

(4) شكل من أشكال (إيزيس). انظر لغز عشتار. فراس السواح ص/72/.

لسنا بصدد دراسة فلسفية شمولية حتى نتطرق لنظرية (داروين) بشأن أصل الإنسان[1] لذا نقول: (إن أكثر المعتقدات الدينية والأسطورية قد أجمعت على أن خلق الإنسان الأول كان من الطين.

والجنس البشري ـ كما تقول الأسطورة الأمريكية ـ قبل أن يظهر إلى الوجود عاش فترة زمنية في باطن الأرض لأن نموه لم يكتمل بعد. فكانت هذه المرحلة شبيهة بوجود الجنين في رحم الأم. ويورد العالم السيكولوجي (أوتوبانك) فيضاً من النماذج عن خلق الإنسان. وفي الملحمة التي نحن بصددها تؤكد على خلق (أنكيدو) من الطين. والتوراة تؤكد أيضاً على أن خلق الإنسان كان من الطين فتقول: (وجعل الرب الإله آدم تراباً من الأرض. كما يؤكد القرآن الكريم أيضاً على أن خلق الإنسان كان من الطين وذلك في كثير من الآيات. (وخلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار) (وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) (هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلها) (وخلقنا الإنسان من سلالة من طين). أما الأسطورة اليونانية فتؤكد على أن (زيوس) قد خلق أول إنسان من الطين أو من طين مشوي، وتذكر رواية أخرى أن (زيوس) قد خلق الإنسان من رماد[2] الآلهة (التيتان) الأشرار بعد أن أحرقهم (زيوس) بصواعقه المدمرة لأنهم أكلوا الطفل البريء الإله (ديونيزيوس). **فجاء الإنسان مكوناً من طبيعتين:**

1. **خيرة.. هي طبيعة الإله يمثلها العقل.**
2. **شريرة.. هي من طبيعة الآلهة (التيتان).**

وتقول أسطورة ثانية: عندما خلق (بروميثوس) الإنسان من الطين كان غاية في الجمال والكمال بحيث خاف (بروميثوس) عليه من أن يختطفه أحد الآلهة المشهورين

---

(1) دينياً: (خلق الإنسان إنساناً) ـ أي جاء في أحسن تقويم.

علمياً: (صار الإنسان إنساناً) ـ النظرية الداروينية. (والفارق بينهما فرق بين الكينونة والصّيرورة)

(2) الرماد يماثل التراب.

بنزواتهم فخبأه في مكان أمين، ولكن الإله (إيروس ـ إله الشبق) قد وشى بالسر إلى (زيوس) كبير الآلهة الذي بعث رسوله (هرمس) لإحضاره فلما رأى جماله دعاه لشرب أكسير الحياة الأبدية وصار من الخالدين وهو يسبح في السماء أبداً على شكل كوكب (جوبيتر)[لخ]. كما تقول أسطورة أخرى أيضاً: عن (زيوس) بعد أن أحدث الطوفان الذي أتى على كل شيء في العالم ما عدا (دوكاليون وزوجته بيرا) أرسل رسوله (هرمس) ليسألهما عن أمنيتهما بعد أن لم يبق في العالم سواهما فأجاباه: (إنهما يرغبان في أن يلتقيا عظام جدتهما لأن (دوكاليون) قد أدرك أن عظام جدته لم تعد سوى حجارة الأرض فنفذ لهما رغبتهما وكانت ولادة جديدة للعالم إذ نشأ الذكور من الحجارة التي ألقاها (دوكاليون) ونشأت الإناث من الحجارة التي ألقتها زوجه (بيرا) فكان الإنسان الجديد أكثر صلابة وشجاعة من الإنسان الأول[بر] حتى أن الإغريق اعتقدوا أن القمر قد جبل من أديم الأرض أيضاً فكانوا يطلقون عليه اسم (الأرض العليا) إلا أنهم اعتقدوا أن (أفروديت) قد ولدت من زبد البحر[تر].

أما مردوخ في الأساطير البابلية فنراه قد صنع الإنسان من دم (كنغو) زوج (تعامت)[يز]. ويقول سكان (نيوزلنده ـ الماء وريون): إن الإله (تيكي) حينما قرر خلق

---

(1) لغز عشتار. فراس السواح. ص/50/.

(2) والحجارة هي نوع من أنواع التراب الصلب فإذا طحن عاد إلى ما كان عليه تراباً.

(3) يعتقدون أن الأم الأرض الكبيرة قد ساعدت ابنها (كرنوس) على إخصاء زوجها (أورانوس ـ إله السماء) ورمي أعضائه التناسلية في البحر ومن تلقيح دم (أورانوس) في مياه البحر ولدت (أفروديت) من زبد البحر .

(4) تقول الأسطورة: (إنه قبل أن تكون الأرض والسماء والكون كانت (تعامت) أم الوجود بما فيه من آلهة.بدأ الآلهة بمخالفتها وإزعاجها بالصخب الدائم من حولها فضايقوها بضجيجهم وحركتهم فقررت أن تدير قواهم ونشاطهم لتعود الطمأنينة إليها والسكون إلى الوجود المحيط بها فهيأت (تعامت) قواها للقتال ووضعت على رأس جيوشها زوجها (كنغو) وسلمته (لوحات الأقدار وأهلته بها لأن يتسلط على جميع قوى الكون الناشطة والساكنة معاً. وبالمقابل فقد جهز الآلهة الفتيان أنفسهم للقتال وسلموا قيادتهم للإله القوي (مردوخ) الذي يفعل المعجزات بسلطة الكلمة والتي فوض رفاقه أمرهم إليه. وكانت نتيجة الحرب أن تغلب (مردوخ) بجرأة على (تعامت) وشطرها نصفين، نصف جعله الأرض ونصف صنع منه السماء، وأجرى الرياح

الإنسان أخذ تراباً أحمر وعجنه بيديه ثم نفخ في فمه فبعث فيه الحياة فجاء على صورته فسماه: (تيكي أهوا).

اما عن قصة لون الإنسان فتقول الأسطورة الفيلبينية: إن الإله قد وضع حفنة من الطين في الفرن ليصنع الإنسان وعندما أخرجه قبل النضج كان أبيض وعندما احترق الطين وأخرجه كان أسود لكن عندما أخذ الطين كفايته من النار كان الفيلبيني البرونزي.

وفي أسطورة لإحدى القبائل الإفريقية نرى أن اللون ينسب إلى نوعية الطين المخلوق منه الإنسان باعتبار أن الخالق (جودك) قد شكل الناس جميعاً من التراب وعندما كان يتجول في أنحاء العالم وجد في البلاد تراباً مختلفة ألوانه فصنع الأبيض من تراب ورمل أبيض، ومر على مصر فشكل الإنسان فيها من طمي النيل فجاءت بشرتهم سمراء، ودخل أخيراً إلى أرض (السكوك) فوجد تربة سوداء فشكل السود منها. أما(ابن خلدون) فقد نسب (اللون) في (مقدمته) إلى عوامل الطقس ونحن إذ نتحدث عن اللون فإننا لا نعني العرق. كالعرق الآري.. وغيره لأن هذه النظرية مرفوضة أصلاً ففي كل لون مبدعون وعاديون إلا أن الدماء التي تجري في عروقهم جميعها تنتمي إلى لون واحد.

الأحلام: (سكب الماء المقدس وقرب الطعام ودعا الجبل أن يريه حلماً يبشره بالفرح) من الملحمة...

لن أدخل في دهاليز التفسير الفرويدي للأحلام لأن ذلك بحاجة إلى بحث كامل مستقل لكنني أرى أنه من المفيد ـ قبل حديثي عن الأحلام في الملحمة ـ تقديم موجز

تفصل بينهما. نظم (مردوخ) الكون وجعل منه النجوم تقويماً لمعرفة الزمن. ولكي يكافيء الآلهة الذين أولوه ثقتهم وحاربوا إلى جانبه قرر أن يخلق الإنسان ليحمل عبء وكدح الآلهة وشقاءهم ويعفيهم من الأعمال الحقيرة. ثم عقد الإله (مردوخ) محكمة للنظر في قضية حرب (تعامت) فاتهم مجلس المحكمة الإله (كنغو) بالجريمة وحكم عليه بالموت فأعدم وقطعت شرايينه ومن دمه المسفوح صنع الإنسان وفرض عليه الكدح والشقاء للتكفير عن ذنب (كنغو) المجرم ولتحرير الآلهة من الآلام والمشاق. انظر كتاب. الإنسان والحضارة. يوسف حوراني. ص/25 - /26

لبعض الأراء المتباينة والتي تنوس بين التبني المطلق للأحلام وبين النفي المطلق لها. يقول (شارل فيروللو) في كتابه أساطير (بابل وكنعان): ص/43/. (كانت الأحلام تعرف الناس بمراد الآلهة. وليس على المرء أن يتعلق بكل الأحلام. فحلم منفرد أو عاجل لا يسترعي الانتباه، لكن إذا تكرر الحلم أو بالأحرى حلمان متشابهان أو متممان لبعضهما لا سيما إذ احتويا تتابعاً مزجياً أو معاً في ليلة واحدة فإن ذلك بمثابة إنذار يحسب حسابه). ولقد اعتقد الشرق القديم أن الحلم ذو أصل إلهي ووظيفته تنبُّئية وإنذارية لدرجة أنها لا تترك مجالاً للقيام بأية تفاسير علمية. ولقد قام (اكسينوفانيس) بثورة على مثل هذه الآراء فنقد (هرمز) و(هزيود) اللذين كانا يعتقدان أن الأحلام رسل الآلهة وأطفال الليل القاطنة في العالم السفلي، ف (سقراط) /469ـ399 ق.م/ رأى أن الحلم تمثيل لصوت الضمير.

و(أفلاطون) /427ـ347 ق. م/ رأى أن الحلم تطهير للدوافع المكبوتة في حال اليقظة و(أرسطو) /384ـ322/ ق. م رأى أن الأحلام هي حياة الروح أثناء النوم وأنها شكل للفاعلية المستمرة، إلا أن (شيشرون) /106ـ43 ق.م/ قد شك بالأحلام من مبدأ أنه من الأحرى ـ من وجهة نظره ـ أن تتصل الآلهة بإنسان صاح واع حاد السمع والبصر من أن تتصل بإنسان يشخر غير مالك لإرادته. أما (أغسطس) /63ـ12 ق. م/ فقد أخذ الأحلام على محمل الجد وأصدر قانوناً مفاده بأن كل من يحلم حلماً يتعلق فحواه بالدولة، عليه أن يروي ذلك الحلم في الساحة العامة على مرأى من الناس ومسمع.ثم سادت في العصور الوسطى التفسيرات الرمزية للأحلام والتي غالباً ما اتخذت الشكل الترفيهي والتنجيمي[لخ] (كذب المنجمون ولو صدقوا).

---

(1) نذكر هنا ما أورده سفر التكوين التوراني /إصلاح /37/ فقرة /5/ كيف أن يوسف رأى حلمين إذ رأى في الأول أن حزمته التي جمعها في الحقل قد وقفت وأحاطت بحزم إخوته وسجدت الحزم لها. فعرف من خلال المنام أنه سيسطر عليهم ثم رأى في المنام الثاني ـ من السفر نفسه ـ الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً قد سجدوا له فعرف أن الشمس والقمر هما أبواه وأن أحد عشر كوكباً هم إخوته. ونقرأ حلمي فرعون ـ في السفر نفسه أيضا ـ إصلاح /41/ فقد رأى في الحلم الأول سبع بقرات سمان حسنة المنظر قد أكلتها سبع بقرات رقيقات قبيحة المنظر. وراى في

أما في مرحلة ما بعد الكنيسة فقد غلب على الأحلام المذهب العقلي وفي أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر نجد أن الأحلام وتفسيراتها كادت تختفي عن وعي المجتمع إلى أن جاء (فرويد) /1894م/ فأصبح الحلم جزءاً من تشخيص العلاج فلكل حلم معنى عند (فرويد) والحلم ـ من وجهة نظره ـ حارس للنوم ومحافظ عليه وكل منام يتم العثور به على أحداث اليوم السابق. فاستطاع أن يعيد الأهمية الفائقة للحلم كتعبير مباشر للنفس والخافية.[لخ]

إلا أن المنام عند (أبيقور) تعكير لصفو النائم. والآلهة التي تتغذي من رحيق الوجود ـ في رأيه ـ لا تحلم لأنها لا تنام. ويرى (بوفانيك) أن النوم ما هو سوى استرجاع للحياة الفعالة في النهار، إلا أن (ميدارد بوس) الذي أنكر وجود (اللاشعور) ذهب إلى أن الحلم شكل الوجود للإنسان ذاته[بر][تر]. أما الأحلام السبعة الواردة في الملحمة فهي كما قال د. (قاسم مقداد) في كتابه (هندسة المعنى في السرد الأسطوري الملحمي ـ جلجامش) أحلام (مسبقة الصنع) لأنها تنبيك بما يعتلج في نفس رائيها قبل رؤيتها.

* * *

أحلام الملحمة السبعة (موضوعها، تفسيرها، تحليلها)

المنام الثاني سبع سنابل سمينة وسبع سنابل رقيقة. وفي كتابي (قراءآت مسرحية) طباعة اتحاد الكتاب العرب فيه بعض ما يتعلق بالأحلام حين دراستي لمسرحية (صعود العاشق).

(1) نلحظ حلم (كالبوريد) قبل اغتيال (يوليوس قصير) والرؤى الثلاث لـ (إيزيس) حين بحثها عن جسد (أزوريس).

(2) انظر مجلة المعرفة السورية عدد /390/آذار /1996/ ص/75 -97/.

(3) ونجد في الإسلام صلاة الاستخارة والاستخارة هي طلب الخير من الله تعالى فيما يقصد من الأمور فيقال خار الله لك ـ إي أعطاك ما هو خير. وأعمال الخير والمحرمات لا استخارة فيهما فهما أمران بينان. وعن جابر (ر) أنه قال. كان (ص) يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها. انظر كتاب وصايا الرسول. إعداد وتخريج محمد إدريس. ص/321 -327/.

obeikandl.com

لقد فسرت له أمه الآلهة البقرة (نينسون)[لخ] المنام الأول والذي رأى فيه كوكباً يقع على صدره ولم يستطع رفعه إلا بمساعدة أهل (أوروك). فسرته بأنه سيكون له صديق قوي يعينه وقت الضيق. ألا يدل هذا المنام ـ إذا ما أردنا تحليله ـ على قلق نفسيته واضطراب أحاسيسه وعدم استقراره لأن الضغط الذي كان يمارسه على شعبه لا بد إلا وأن يولد انفجاراً قد يكون هو ضحيته الأولى. فهو يعلم علم اليقين ـ ولم يأبه لهذا العلم ـ بأن الحاكم من غير مساعدة شعبه ما هو سوى رقم من الأرقام وصفر على اليسار ليس إلا. وما تفسير المنام الثاني ـ من قبل أمه أيضاً ـ والذي رأى فيه فأسا وقد انحنى عليها كما ينحني على فتاة إلا دليل على خوائه الداخلي وفراغه المروع وحاجته القصوى إلى صديق حميم يبثه شكواه ويسمع سره ونجواه لأنه ـ كما قلنا آنفاً ـ كان فرداً مستبداً لا أحد إلاه. ولعل أمه (نينسون) كانت أدرى بما يعانيه (جلجامش) ويدلنا على ذلك ما قالته الملحمة: أن (نينسون) كانت متبحرة في معرفة (جلجامش).

أما الحلمان الثانيان: حيث تضرع للجبل لكي يريه مناماً يبشره بالفرح[بر]، فرأى أنه يقف على هوة جبل ثم سقط الجبل وتصدع، وقد فسره له صديقه (أنكيدو) بأنه سقوط (لخمبابا) (ولا نعلم من أين تعلم (أنكيدو) تفسير الأحلام) أليس هذا المنام تأكيداً على ما كان يعتلج في صدر (جلجامش) من أنه كانت لديه ثقة شبه عمياء تؤكد له على أن النصرعلى (خمبابا) من خلال إصراره ومساعدة (أنكيدو) له أمر حاصل لا محالة؟. أما حلم (أنكيدو) باجتماع الآلهة وهم يتشاورن

---

(1) يدلنا ذلك على ما كان للمرأة من شأو وشأن في ذلك الوقت أما رؤيته في الحلم الثاني للطائر (زو) الذي نزل به إلى العالم السفلي فقد كان نتيجة لما أحدثته حمى الموت فيه إذ شلت تفكيره عن كل شيء باستثناء الهلوسات التي تملكته وقد تغيرت أشكالهم واستعادوا بعضا من هيئة الطيور وملامحها. وهو يصارع شبح الموت متمثلا ب (زو) الذي سينتزع منه روحه ثم يحمله إلى العالم السفلي. و(زو) لم يكن غريبا عن ذاكرة (أنكيدو) فهو في مخيلته يوم كان صحيحا معافى. مرة يتصوره وأخرى يتذهنه شأنه ـ في ذلك ـ شأن سائر الذين يعانون سكرات الموت وبخاصة في حالة النزع الأخير حيث تتراءى أمام أعينهم صور (لملك الموت).

(2) بإمكانك أن تقارن ذلك بصلاة الاستخارة التي نو هنا عنها في الصفحات السابقة.

بشأن من قتل (خمبابا) و(الثور السماوي) وأن على قاتلهما أن يموت ـ هذا الحلم الذي لم يفسره أحد ـ ما هو سوى دليل على ما تكنه (خافيته = لا شعوره) وحتى (واعيته = شعوره) من تساؤلات كانت تقض مضجعه، فحواها: ترى ما هو موقف الآلهة منا بعد قتلنا ل (خمبابا) الذي لا يقهر؟!.. بل ما هو موقفها منا بعد قتلنا الثور السماوي؟.. أليس قتلنا الثور السماوي قتلاً لرسول الآلهة.. ألا يهز مقتل هذين العملاقين على أيدينا عرش الآلهة خوفاً من أن تطال أيدينا الآلهة أنفسهم لذا فليس غريباً ـ بل أمر جد طبيعي ـ أن يتبدى له غضب الآلهة ويحتل كيانه وينفلت منه عند انفلات (خافيته) لحظة لا رقيب عليها. أما رؤيته في الحلم الثاني للطائر (زو)[لخ] الذي نزل به إلى العالم السفلي فقد كان نتيجة لما أحدثته حمى الموت فيه إذ شلت تفكيره عن كل شيء باستثناء الهلوسات التي تملكته وهو يصارع شبح الموت متمثلا بـ (زو) الذي سينزع منه روحه ثم يحمله إلى العالم السفلي. و(زو) لم يكن غريباً عن ذاكرة (أنكيدو) فهو في مخيلته يوم كان صحيحاً معافى. مرة يتصوره وأخرى يتذهنه شأنه ـ في ذلك ـ شأن سائر الذين يعانون سكرات الموت وبخاصة في حالة النزع الآخير حيث تتراءى أمام أعينهم صور (لملك الموت)، وقد تختلف هذه الصور باختلاف الصورة المأخوذة عنها منذ اليفاعة (طائراً.. ملكاً.. شبحاً) لكن الجميع متفقون أن صورة قدومه مخيفة، وما الحلم الأخير الذي رآه (جلجامش) وهو في أشد حالاته يأساً وبؤساً بأنه يصارع الأسود ـ ولم يفسره أحد أيضاً ـ إلا بمثابة (صحوة موت) كان يعاني منها وكأنه يقول لنفسه: إن لم تستجمع قواك يا (جلجامش) وتعُدْ جباراً كما كنت فلا بد أن تطالك يد (البوار والثبور والهلاك).

جماعة القول: نؤكد ما قرأناه في كتاب الأحلام ل (أنيا تيار) بأن الحلم (مسرح نحن فيه منصة التمثيل والممثلون والرواية والنقاد والجمهور).

---

(1) (زو) طائر مزيج من إنسان وطائر. يعتقد أنه كان إله العالم السفلي و(مردوخ) هو الذي حطم رأسه فكان النسر الذي يعيش على جثث الموتى وهو رمز للأم الكبرى (عشتار) في وجها الأسود. وفي الأساطير المتعلقة بالعالم الأسفل نجد أن عفريت الموت قابض الأرواح هو طائر. كما نجد الموتى هناك وقد تغيرت أشكالهم واستعاروا بعضاً من هئية الطيور وملامحها.

التشابه بين الأساطير

عندما تجول في رحاب الأساطير العالمية يلفت نظرك التشابه فيما بينها إذ يصل في بعض الأحايين إلى درجة التطابق. فتضطر ـ على الرغم من إقرارك بعالمية الثقافة وأن صانعي الأسطورة قد مروا بمراحل متشابهة مع مراحل الأسطورة الأخرى ـ تضطر إلى أن تقر بالفضل ـ شئت أم أبيت ـ إلى الأسطورة الأسبق في الوجود زمناً.

لذا بإمكاننا القول: إن الأساطير الأخرى قد انتحلت بعض أفكار ملحمة (جلجامش) كما انتحلت شخصيته تحت أسماء مختلفة ونسبت أعماله أيضاً إلى أحد أبطالها.

تقول الملحمة: (الآلهة وحدهم هم الخالدون في مرتع شمش أما البشر فأيامهم معدودات). يقول سفر الجامعة في التوراة (ما الفائدة للإنسان من كل تعبه تحت الشمس دور يمضي وأخر يجيء والأرض قائمة إلى الأبد). تقول الملحمة ـ على لسان (سيدوري) حارسة الحانة الإلهية ـ: (أما أنت يا جلجامش، فاملأ بطنك وارقص وافرح ليلك ونهارك). يقول سفر الجامعة التوراتي أيضاً: (اذهب.. وكل خبزك بفرح واشرب خمرك) ثم ألا يذكرنا هذان القولان بالنظرية (الهيدونية) وذلك من خلال موقف (ابيقور) /341ـ270 ق. م/ والذي اعتمد ـ على صعيد المعرفة ـ وعلى المذهب الحسي. وجعل اللذة هي الخير الأول، خير يصدر عن ذاته، وأن اللذة هي هدف الحياة وغايتها وما الألم سوى شر خالص[لخ]. ثم ألا يشبه (جلجامش) (نمرود) التوراة الذي كان جبار صيد أمام الرب؟ كما نجد في الميثولوجيا اليونانية أن (آخيل) في (إلياذة هوميروس) قد أنجبته آلهة مائية ثانوية اسمها (تيتيس) وزوجها (بيلوس) ملك صقيلة فكان مزيجاً من آلهة وبشر.

حاولت أمه أن تهبه نعمة الخلود وتغمسه في ماء (ستيكس) الإلهي الذي يذهب بالجزء الفاني من الجسد البشري ويبقي على الجوهر الخالد. ثم.. ألم يكن (هرقل) بطلاً رياضياً يقتل الأسود وإليه يعزو اليونانيون الألعاب الأولمبية. لقد أراد (هرقل) أن يكون مساوياً للآلهة فعرضت عليه الآلهة (اثني عشر عملاً) إذا فعلها يبلغ مراده

---

(1) انظر الموسوعة الفلسفية العربية مجلد /2/ ط 2/1988/ص/1224/.

ففعل الأحد عشر وفي الثاني عشر طلبت منه الألهة النزول إلى العالم السفلي ولما فعل انقضت عليه صاعقة أحرقت جسده الفاني.

كما تشابه (جلجامش) مع (ثيثيوس) حيث ولد من عائلة ملكية إذ كان (بوزيدون) إله البحر عاشقاً لأمه قبل ولادته عن طريق (بوزيدون). فنقل الدم الإلهي إلى (ثيثيوس) بحيث كان متفوقاً على جميع الرجال في قوته الجسدية فكان أقرب إلى الآلهة من البشر. قتل (ثيثيوس)(المينوتور ـ الثور الكريتي المتوحش) كما قتل (جلجامش) (الثور السماوي) الذي أرسله (آنو) بناء على رغبة ابنته (عشتار)، وقد هبط (ثيثيوس) مع صديقه المخلص (بروميثوس) حيث لازمه ملازمة (أنكيدو) لـ (جلجامش).

obeikandl.com

جولة عجلى طفت فيها في رحاب هذه الملحمة الرائعة آملاً أن أكون قد وقفت في تقديم ولو فكرة جديدة أضيفها إلى جهود من سبقوني في تناولها بالدراسة، لأن هذه الملحمة ــ الثابتة توثيقاً والمتغيرة تناولاً وتداولاً من خلال رؤية الناظرين إليها.....

ـ سيتناولها اللاحقون بالدراسة آتين بالمزيد المزيد بكل تأكيد.. وهذا ما نطمح إليه وما نريد.. لأن جل ما في العالم قديم ونحن من ينفث الحياة فيه من جديد.

* * * * *

يقول (ميرلوبونتي):

صحيح أن العالم قديم..... لكن علينا أن نتعلم كيف نراه